الموقف الأدبي

الموقف الأدبي

مجلة أدبية شهرية يصدرها اتحاد الكتاب العرب بدمشق

العدد **320**-السنة السابعة والعشرون،

كانون الأول - 1997 م

شعبان - 1418 هـ

المراسلات :

باسم رئاسة التحرير
اتحاد الكتاب العرب
دمشق . المزة أوتستراد
ص .ب : 3230
هاتف : 6117240
6117243
6117242

12 - الموقف الأدبي

المحتويـــــات :

أول الكلام

تــــونـــــس..
عـــاصمة ثقافيّة

شوقي بغدادي

فكرة إصدار أعداد خاصة عن الأدب الحديث في الأقطار العربية الشقيقة فكرة مطروحة في اتحاد الكتاب العرب بسوريا منذ أمد بعيد، وقد نفّذت أكثر من مرّة، وها نحن نستأنف نشاطنا هذا متواصلين مع الأدب التونسي الحديث في الشعر والقصة تحديداً.

وقد تجسّدت الفكرة من خلال الاتفاق القائم بيننا وبين اتحاد الكتاب التونسيين وجهود جهات أخرى دافعة للموضوع .

ونحن ندرك سلفاً أن الإحاطة بالأدب التونسي الحديث في عدد واحد من أية مجلة أمرٌ شبه مستحيل، ولهذا فلقد كان لابد من الإختيار، فإذا لاحظ أحدهم غياب بعض الأسماء فهو أمر طبيعي إذ يستحيل تقديم الجميع دفعة واحدة. ومن هنا فنحن نِعِدُ بتلافي هذا النقص إذا ما كان موجوداً في الأعداد المقبلة، فليس من الضروري أن يتوقف التواصل مع تونس أو مع غيرها من الأقطار العربية الشقيقة بانتظار عدد خاص، فالأفضل متابعة هذا التواصل دونما انقطاع طويل، وهي خطة نؤمن بها في سوريا كل الإيمان وننفّذها عملياً في كل عدد تقريباً إذ نجد فيه باستمرار اسماً أو اسمين لكاتبين من غير السوريين حسبما تتوفر لنا المادة الصالحة.

وليس من المجاملة القول بجدارة تونس حين نتذكر أن معهدها العربي الإسلامي العظيم "جامع الزيتونة" والقائم حتى الآن قد كان منذ قرون بعيدة المنارة التي كان يشعّ نورها ويعمّ المغرب العربي بأسره ويتجاوزه إلى الوطن العربي، وإلى العالم، هذا المعهد العريق الذي لعب دوره الحافظ للتراث العربي والإسلامي عموماً، والمربي الأصيل للأجيال العربية الصاعدة والمهدّدة بالغزو الثقافي الأجنبي، ليس لأبناء تونس وحدها بل أيضاً لأبناء الجزائر وليبيا والمغرب وعدد من الأقطار العربية الأخرى التي جاء طلاّب العلم، واللغة، والدين، منها إلى جامع الزيتونة كي ينهلوا من ينابيعه الثرية، ويتخرجوا منه فيما بعد كي يغدوا كتّاباً مبدعين، وأساتذةً معلمين، وروّاداً في ميدان الثقافة العربيّة والإسلامية الأصيلة.

لن أتحدث هنا عن أبي القاسم الشابي ورفيقه محمد الحليدي والخريف وكثيرين آخرين من الأجيال اللاحقة ممن أسسوا للأدب التونسي المعاصر ونقلوه من إطاره المحلّي إلى إطاره القومي والإنساني، فهذا حديث يعرفه المهتمون بالأدب العربي المعاصر وإنما أذكّر به وأدعو من يجهله إلى مراجعته في مصادره الأساسية وهي أكثر من أن تحصى، وكلها تؤكد أهمية الدور الثقافي الطليعي الذي لعبته تونس سواء أكان ذلك في حفظها التراث العربي والإسلامي- واللغة العربية خاصّة- ونشر كل ذلك بين الناشئة أم في احتكاكها بالثقافة الغربيّة والتواصل معها ونقل تياراتها وتقنّياتها الهامّة إلى العربية وجعلها في متناول القراء العرب

من جميع المستويات.

تلك هي تونس!. وهذه نماذج من أدبها الحديث في الشعر والقصّة، آملين أن نقدّم نماذج أخرى من أدبها المسرحي والروائي - إذا أمكن- والنقدي في المستقبل كي يكتمل المشهد الفكري والأدبي التونسي.. ويا له من مشهدٍ فسيحٍ جميلٍ عامرٍ بالحركة والحياة!.

❐

مدخل

تقديم العدد

أبو زيّان السعدي

إنّ هذا العدد الخاص، الذي تصدره مجلّة "الموقف الأدبي" الدمشقية عن الأدب التونسي الحديث، إنما يأتي في هذا الأوان بالذات، استجابة موضوعية حاسمة لعمق الروابط التاريخية، بين الشعبين العربيين الشقيقين سوريا وتونس، وما يصل بينهما من وشائج القربى والإخاء، وصلات الدّين واللغة والتراث والحضارة، ووحدة الموقف والمصير، وهو بذات الوقت تكريس لما ينتجه الرئيسان المناضلان: زين العابدين بن علي وحافظ الأسد، من سياسة حكيمة، عمادها المصلحة العربية المشتركة، والحفاظ بكل قوة على روح التعاون الوثيق بين كل شعوب الأمة العربية، مشرقاً ومغرباً.

وهو من وجه آخر، تأكيد لطبيعة العلاقة المتميزة بين المثقفين والأدباء والفنانين في القطرين الشقيقين، والتي تعددت لها أوجه علي كافة الأصعدة المسرحية والسينمائية والتلفزيونية والأدبية في مختلف المناسبات هنا وهناك وكان نموذجها المفضّل على كلّ حال، هو هذا النموّ المطّرد للعلاقات الأدبيّة، بين اتّحاد الأدباء العرب واتّحاد الكتّاب التونسيين، من خلال هذه الزّيارات المكثّفة المتبادلة، ومن خلال هذه المشاركات الفعّالة في مختلف التّظاهرات الفكرية والأدبية والشعرية، ومن خلال هذه الاتصالات الموفّقة المستمرة بين الاتحادين لتنسيق المواقف وتطويرها إلى ما يخدم القضايا الفكرية والأدبية والثقافية، في كلّ من البلدين الشقيقين، وفي كل البلاد العربية الأخرى أيضاً.

وإذن وبهذا الاعتبار، فإنّ هذا العدد الخاص، جاء ليخدم علاقة ثنائية، هي متميّزة على الدّوام، وجاء أيضاً ليعكس صورة واضحة عن الأدب التونسي، كما يتحقّق عبر مسيرته الحديثة، وبخاصّة بعد تحوّل السابع من نوفمبر سنة 1987، الذي جاء ليردّ الاعتبار لشخصية تونس العربية الإسلامية وحسن تجذّرها في بيئتها ومحيطها وتاريخها وحضارتها فيهمُّ القارىء العربي حيثما كان أن يطلع عليها ويقف على ما أصابها من تطوّر وتغيير، باتجاه الأحسن والأفضل دوماً، ولقد أردناه حقّاً، قولا وفعلا، ممثّلاً لأهمّ الاتّجاهات الأدبية في تونس الحديثة، محتكمين في ذلك إلى النُّصوص الإبداعية وحدها، من قصّة وشعر، كما أنجزها أصحابها وعرفوا في كلّ الأحوال، غير مهتمين في قليل أو كثير بألوان التنظير النقدي- على أهميّتها- لأنّها في تصوّرنا، لا تخدم فكرة هذا العدد لدى القارىء العربي، خارج تونس على وجه التحديد، تلك التي أقمناها على الاتّصال المباشر بالنصوص، تاركين للقارىء وحده، أن يعمل فيها ذوقه ورأيه ونقده، بعيداً عن أيّ توجيه نقدي، مهما كانت إيجابيّته في هذا الميدان.

وهكذا فإنك في هذا العدد- أيها القارىء الكريم- واجدٌ أهمّ ما يعتمل في الساحة الإبداعيّة من اتجّاهات وتيّارات وتجارب، لم يمنعها التغايرُ والاختلافُ من التعايش. فمنها قصائد عمودية كتبها أصحابها بمقاييس الخليل المعهودة، يصوّرون بها تجارب حديثة ومعاصرة، وهذه قصائد "حرةّ" تستخدم التفعيلة من البحر، كما يستخدمها الكثيرون في الوطن العربي

منذ خمسين سنة، وهذه قصائد نثرّية تخلّصت من قيود هذا وذاك، وهي تجارب لم تتجذّر بعد في المتن الشعري التونسي الحديث، إلاّ أنّ لها أنصارها وقرّاءها، ولذلك حرصنا على حضورها في هذا العدد الخاص، حرصنا على حضور الاتّجاهين السابقين، أما القصّة القصيرة، فقد جاءت- كما يعكسها هذا العدد- ممثلة لأهمّ كتّابها في تونس، وهم للعلم معروفون ومعروفات جيداً في الساحة الإبداعية، ولكل منهم لونه الذي عُرف به لدى النّقاد والقراء، نعم إنّ هذه النصوص الشعرية والسرديّة، لا تدّعي مصادرة غيرها من النصوص الأدبية التونسية، التي لم يشملها عددنا هذا، ولكنّنا نرى أنها تمثّل الواقع الأدبي التونسي الحديث والمعاصر تمثيلاً حسناً وصحيحاً، بل وتقدم هذا الأدب تقديماً يضع القارىء العربي في الصورة الواضحة، التي نريدها لإشعاع هذا الأدب في كلّ أجزاء الوطن العربي بلا استثناء، ضمن أدب عربي مزدهر، تمتدّ أفياؤه من المحيط إلى الخليج، وفي ذلك بلاغ.

والذي ينبغي أن نشير إليه هنا، هو أنّ هذا العدد من الموقف الأدبي عن الأدب التونسي الحديث، يصدر في مناسبة سعيدة تعيشها تونس السّابع من نوفمبر منذ فاتحة هذه السنة 1997، بمناسبة اختيارها عاصمة ثقافية، من طرف منظّمة الأمم المتّحدة للآداب والعلوم والفنون (اليونسكو) ومن ثمّة فهو إسهام سوريا الشقيقة، في هذا العرس الثقافي الكبير الذي تجنّدت له كافة القوى الحيّة في تونس.

❑❑❑

واحة الشعر

المشهد الأدبي التونسي
وملامح المستقبل

د. محمد القاضي

قد يستغرب المرء أن يكون الحديث عن الأدب في علاقته بآفاق المستقبل، والحال – أن دراسة الأدب إنما تنطلق أساساً من الزمن الذي يتنزل فيه الإبداع، ولهذا فإننا نرى من المهم أن نبادر إلى تحديد مقصدنا من الربط بين الأدب والمستقبل. فإذا اعتبرنا الأدب نشاطاً إبداعياً جمالياً قائماً على التخييل ترتّب على ذلك منطقياً أن ننزّله في سياق اقتصادي واجتماعي وثقافي، أو قل في سياق حضاري، ومن ثم فإن الأديب– وهو يبدع– لا يعنى بالماضي أو الحاضر بقدر ما يعنى بالمستقبل، لأن القول كما بين علماء الحجاج أو البراقماتيون (Progmaticiens) إنما هو فعل. وبناء على ذلك فإن جوهر كل أدب أن يدفع بمتقبّله إلى الإقرار بفكرة أو مبدأ أو قيمة، والانخراط في تصور تجسده مواقفه وأعماله.

إن هذه النظرة لا تنطوي على تهجين للأدب أو تسطيح له بردّه إلى وظيفة عملية محض، وإنما هي إقرار بدور الأدب في دفع حركة التاريخ ونحت مستقبل أفضل للإنسان.

نعم، إن عصرنا هذا قد تميز بتطور وسائل الاتصال تطوراً مشهوداً هدد الأدب المكتوب، ودفع ببعض المفكرين إلى الخشية عليه من أن يلفظ أنفاسه وينهار صرحه أمام جبروت الأقمار الصناعية وأسطوانة اللايزر وشبكة الأنترنت، غير أن الأدب كذّب هذه التوقعات، وظل– رغم هذا الانقلاب الجامح– صامداً لأنه وليد الإيمان بأن إنسانية الإنسان لا تؤول إلى مقوماته المادية، ذلك أن هم الأدب أن يثير القضايا ويفجّر المكبوت، ويخوض غمار الذات الانسانية ويعبّر عن مسيرة انسان من الماضي السحيق إلى المستقبل غير المنظور، وانطلاقاً من هذا يجوز لنا أن نعرف الأدب بأنه مصنع المثل العليا ومتنفس البشرية حين تستبدّ مشاعر العجز والقهر مهما كان مأتاها، إن الأدب الحق كان في كل زمان ومكان تعبيرا عن الطاقات الكامنة في الانسان وتحريراً له من القيود، ورفضا لما في الواقع من زيف وقبح، وتوقا إلى عالم بديل من مقومات سحره وفتنته أن يظل أبداً في حيز الطموح، لأنه ممهور بالحلم. وحين يتحقق الحلم يكفّ بداهة عن أن يكون.

والناظر في الأدب التونسي المعاصر يلاحظ أنه تجاوز مرحلة التحسّس وأصبح على حال من النموّ يمكننا معها أن نؤكد أن بعض النماذج فيه تضاهي مثيلاتها في الأدبين العربي والعالمي

وتتفوق عليها، وليس ظهور عدد كبير من دور النشر الخاصة وإصدارها عناوين كثيرة في مختلف الأجناس الأدبية إلا دليل على هذه النهضة التي يشهدها الأدب التونسي، مما يبوئه للاضطلاع بدور فعال في ترسيخ صورة للمستقبل ذات ملامح مميزة.

ومما يختص به المشهد الأدبي المعاصر في تونس أمور منها:

1- ازدهار الرواية: وهو ازدهار لا ينفصل عما تشهده الآداب الأخرى. فقد أخذت الرواية تتربّع على عرش الإبداع الأدبي وتغير على الأجناس الأخرى وتأكلها، حتى أصبح من الجائز أن نتحدث عن أمبريالية الرواية. ولنا أن نذكر ههنا "حروف الرمل" "لمحمد آيت ميهوب" و"الدراويش يعودون من المنفى" و"شبابيك منتصف الليل" لإبراهيم الدرغوثي، و"المؤامرة" و"التبيان في وقائع الغربة والأشجان لفرج الحوار" و"دار الباشا" لحسن نصر، و"النخّاس" لصلاح الدين بوجاه، و"هلوسات ترشيش" لحسونة المصباحي، ومتاهة الرمل "للحبيب السالمي.. وهي نصوص فيها الكثير من الفن، مما يجعلها جديرة بأن تمثل خير تمثيل الإسهام التونسي في هذا اللون من الإبداع.

2- ازدهار قصيد النثر: والحق أن الشعر العمودي وإن وجد في محمد الغزّي وجمال الصليعي خير مدافع حتى عاد إليه من كان متمرداً عليه مناصباً إياه أشد العداء وأعني الطاهر الهمامي، فإن المقبلين عليه قد قلّ عددهم في حين ظل للشعر الحر عشّاقه من قبيل الميداني بن صالح ومحمد الغزّي والمنصف الوهايبي وأولاد أحمد ومحي الدين خريف ومحمد الخالدي والمنصف المزغنّي وسويلمي بو جمعة ومحجوب العياري وحسين العوري وفتحي النصري.. على أن الظاهرة التي تسترعي الانتباه الإقبال على قصيدة النثر على نحو ما يظهر في كتابات سوف عبيد وحسين القهواجي والطيب شلبي وباسط بن حسن وشمس الدين العوني ومحمد فوزي الغزي.. وفي هذا النوع من الكتابة سعي إلى خرق المألوف وكسر العادات القرائية وتجاوز أفق الانتظار الذي تأسس على عمود الشعر وشعر التفعيلة.

3- ازدهار الأدب النسائي: إذ أكدت بعض الأديبات قدراتهن من قبيل عروسية النالوتي ونافلة ذهب وبنت البحر وفضيلة الشابي وفاطمة سليم وفوزية العلوي وزهرة العبيدي وربيعة الفرشيشي، وجميلة الماجري في حين ظهرت أسماء جديدة منها آمال مختار وعلياء التابعي ونجاة الورغي وطاوس بالطيّب وكاهنة عباس وإيمان عمارة وراضية الرياحي.. وما هذه الحركة التي شهدتها الكتابة الإبداعية النسائية بتونس إلا صدى للمنزلة التي أصبحت تحتلها المرأة في المجتمع منذ الاستقلال والدور الذي أصبحت راغبة في الاضطلاع به في هذا المجتمع.

وليس من شك في أن هذا الحيّز لا يكفي لاستعراض هذه النصوص جميعاً أو حتى أبرزها، وسعياً منّا إلى عدم الوقوع في سطحية التلخيص وسذاجة السبر التاريخي فقد اخترنا أن نعالج مسألة العلاقة بين الأدب التونسي والمستقبل من خلال نقطتين نعتبرهما رئيسيتين وهما:

- صورة الوطن في هذا الأدب: وطن اليوم وطن الغد.

- أشكال الحداثة ومضامينها في هذا الأدب: النص والعالم.

....

صورة الوطن في الأدب التونسي: وطن اليوم ووطن الغد.

إن التحولات التي شهدتها الشعرية العربية الحديثة والمعاصرة قد انعكست على الشعر التونسي فمر من طور الكلاسيكية الجديدة إلى طور الرومنسية إلى طور الواقعية إلى طور الواقعية الاشتراكية ولكن هذه الأطوار تراخت قبضتها شيئاً فشيئاً، وأخذ الشعر يروُد مناطق أقل التزاماً بالواقع اليومي المتحول وألصق بالتجربة الإنسانية الجمالية التي يغدو فيها الشعر عملاً على اللغة لا تصويراً لواقع خارج عنها، ويترتّب على هذا أن علاقة الشعر بما ليس شعراً قد انقلبت رأساً على عقب.

وقد حاولنا أن نرصد صورة الوطن في الشعر التونسي الحديث فبان لنا أنها مجال خصيب لدراسة هذا التطور، ورأينا أن النصوص الإحيائية أخرجت الوطن في صورة مثالية استخدمت لأدائها البلاغة القديمة المتوسّلة بالتشبيه والازدواج والمحسنات البديعية والبيانية، ومن ثم كان الوطن عند الشاذلي خزندار بمثابة الإله المنفصل عن الكون، فهو خارق للزمان تتغير الأعصر والأحوال وهو لا يتغير، إنه مثل أعلى لا يعتريه التحول، وليس على محبيه إلا أن يعيدوا إليه صورته الأصلية التي دنستها الأعراض الزائفة، وبناء على ذلك فإن الوطن الحق هو ذلك الوطن الثاوي في أعماق التاريخ، والذي ينبغي أن نزيل عنه الغبار لتعود إليه صورته الأزلية الأبدية، ومن هنا فإن مستقبل الوطن ينبغي أن يكون نسخة من ماضيه، يقول الهادي المدني:

أترى يعود المجد مجد بلادي　　　أم هكذا تبقى على استعباد

وعلى هذا النحو تندرج صورة الوطن في سياق الحركة السلفية التي تريد التجديد ببعث الماضي، وكما كان الوطن جوهراً مثالياً غطته الأعراض السلبية فإن شعرية الوطن ظلت في عمقها تقليدية تستنسخ البلاغة المعتقة.

إن هذه الصورة ستنتقل مع الرومنطيقيين من المثالية إلى الكونية، وبهذا فإن شعرية الوطن عندهم تجلت في امتداد مساحة الوطن وخروجه من الحيز الضيق إلى المدى اللاّمتناهي حيث الحياة والنور. يقول الشابي:

ألا انهض وسر في سبيل الحياة　　　فمن مات لم تنتظره الحياة

إلى النور فالنور عذب جميل　　　إلى النور فالنور ظل الإله

إن الوطن يغدو ههنا جزءا من الوحدة الكونية ولئن كانت صورة الوطن في هذه النصوص غير مندرجة في تلافيف الماضي، فإنها في تحولها إلى المستقبل ظلت أسيرة النظرة المثالية. إن خطاب الرومنسية الاستعادي أضفى على شعرية الوطن بعدا رمزياً، جعل الوطن مندرجاً في حقيقة عامة هي حقيقة الكائنات الأزلية السرمدية.

ومع حركة الطليعة تشظّت صورة الوطن فقد رفض أصحابها الشعرية القديمة المتوارثة والمضامين الجاهزة، ودعوا إلى أن ينفتح الشعر على الحياة وأن يرصد أصوات الشارع، ومن هنا نزلت صورة الوطن عندهم من علياء الجمال التجريدي المطلق إلى حيز التجسيد، ومن ثم فإن وطنية شعراء الطليعة تنبع من ملاحظة الجوانب السلبية التي كان يسكت عنها، وحب الوطن عندهم لا يعني تمجيده بل يعني إخراج حقيقته- وإن كانت بشعة- من الكمون إلى الظهور، إن غياب الوزن والقافية وحضور العامة في هذا الشعر دليل على انكسار التناغم في صورة الوطن القديمة، وتهاوي أحدية المرجعية إلي كانت معتمدة في التعبير عنه، وبهذا تتشظّى صورة الوطن، ويكون ذلك انعكاساً لتشظّي الطبقات والمصالح والإيديولوجيات.

على أن هذا التشظّي في صورة الوطن لا يعني انقطاع الأواصر بينه وبين الشاعر، فهذا الوضع المخصوص يصبح حافزاً للتعلق بالوطن والتغنّي بجماله، وبهذا يكرس التطابق بين الذات والموضوع وبين الشعر والوطن، وتصبح حقيقة الوطن ماثلة في الحاضر الراهن بما ينطوي عليه من تناقض وصراع.

ولمّا كان الشعر تراكماً فإن هذه الصور الثلاث قد اجتمعت في نص واحد هو آخر ما كتبه الميداني بن صالح وهو "الملحمة التونسية"، وفيها تعاظل بين الشعر العمودي والشعر الحر، وإبراز لماضي الوطن من خلال المراحل التاريخية الكبرى التي مرّ بها، ولحاضره من خلال ما تحقق له من مكاسب في العهد الجديد، ولمستقبله من خلال المبادىء والقيم التي ترسخ فيه لبناء وطن تسوده الديمقراطية وحقوق الإنسان والتسامح والتكافل الاجتماعي والتعددية وحق الاختلاف، ولاشك أن هذا المجتمع هو الذي مكن الشاعر من اعتصار صورة للوطن لا تعارض فيها بين الموجود والمنشود، وبين الماضي والحاضر والمستقبل.

- أشكال الحداثة ومضامينها: النص والعالم.

إن هذه المسألة تشدنا إلى الأدب السردي عموما والرواية على وجه الخصوص، ذلك أن الرواية التونسية التي انطلقت من حيز الواقعية، كانت تنهض على المشاكلة waisemblance وترغب في إقامة عالم روائي يماثل العالم الواقعي- و"الدقلة في عراجينها" للبشير خريف نموذج فذ لهذا الاتجاه.

إلا أن الناظر في الرواية التونسية الحديثة مع فرج الحوار وصلاح الدين بوجاه وعروسية النالوتي وإبراهيم الدرغوثي والحبيب الساطي وحسونة المصباحي يلاحظ تحول نمط الكتابة، إذ انكسرت تلك الوحدة القديمة وأصبح تماسك النص غير متولد من مشاكلته للواقع، وإنما هو وليد حركة داخلية تنصهر فيها عناصره، إلا أنها تقدم لنا في شكل مهشم متعرج منكسر يقطع الصلة مع القص الواقعي والكلاسيكي.

فهذه الروايات خارقة للعادات القرائية، متجاوزة لأفق انتظار القرّاء، إذ هي تزعزع ما استقر في الأذهان من تقسيمات ثابتة بين أجناس الأدب ولهذا فإننا نجد فيها الشعر والتاريخ والمسرح والخرافة

كما أنها تكسّر صورة الراوي المتماسك وتبعثر الرؤى فإذا بالأصوات تتعدد ويصبح كل منها مدخلاً لمصطلح قرائي، وسجلاً حاملاً لرؤية للكون، حتى إن النص الروائي يغدو بمثابة الركح الدائر الذي نطل عليه من زوايا متعددة تعدد الحقيقة.

كما أن هذه الروايات لا تتعامل مع النصوص الأخرى تعاملاً تقليدياً، فهي تأكل غيرها من النصوص وتغيّر وجهتها بحيث إنها تصبح مجمعاً من النصوص التي تنتمي إلى عصور مختلفة وأمكنة متنوعة، إلا أنها تنصهر حتى تكون نصّاً، له شخصية فذة ومواصفات ينفرد بها.

إن هذه السمات التي تتصف بها الرواية التونسية المعاصرة تشهد على تغيّر في مفهوم الإبداع وفي وظيفة الفن، ذلك أن التماس أصبح السمّة المُميّزة لهذه الروايات فخرجت عن وقار الأحدية إلى حداثة التعدد.

على أن حداثة هذه التّماسات ليست زينة خارجية وإنما هي ناتجة عن تغيّر في وظيفة الأدب نفسه. فهو لم يعد منحصراً في حيز مكاني محدّد، وإنما غدا معنيّاً بالعالم كله يحمل همومه ويبشر بخلاصه، ولم يعد منحصراً في الماضي والحاضر وإنما أصبح يرسم صورة المستقبل، ولم يعد يرفع لواء المثل القديمة الممتدة في جذور التاريخ، وإنما أصبح يجسّد قيماً أخرى هي وليدة التّماس بين الحداثات المختلفة التي تسود عالمنا. وبهذا تكون الخصائص الشكلية لهذه النصوص تعبيراً عن أبعادها الفكرية. فهذا التعدّد يأتي لينقض صورة البطل الأوحد والراوي الأوحد والكون المتناغم، ويؤسس صورة البطل المتعدد والراوي الديمقراطي والكون المتنوع.

إن حداثة الكتابة تكمن في خرق ما هو مثالي سكوني باسم الواقع الحركي. فليست الرواية بهذا المعنى وصفاً للماضي أو إيقافاً للزمن الحاضر وتجميداً له، وإنما هي رسم لملامح المستقبل وتكريس للقيم الإيجابية التي أصبحت توجّه الكون على أيامنا، فحداثة التّماسات ليست درجة شكلية بل هي إيمان بأن الرواية خاصة والأدب بصفة عامة لم يعد دوره التحريض أو الإيهام، بل أصبح دوره الحوار دونما تلقين أو تسلط. وبهذا فإن حداثة التّماسات جسر متين لتماس الحداثات ومحاولة للدخول في العصر من خلال تغيير طبيعة المجتمع ونوع العلاقات التي تنشأ بين أفراده وضروب القيم التي تشكل ملامحه المستقبلية.

إن هذه الإطلالة السريعة على الأدب التونسي قد مكنتنا من الوقوف على المسار الذي مرّ به حتى تتشكل ملامحه الأساسية أوقفتنا على نتيجتين أساسيتين:

1- إن هذا الأدب يواكب التحولات ويستبقها في أغلب الأحيان، وهذا مثال واضح على الثقافة، التي يظل الإبداع الأدبي دعامتها الأساسية- ليست نشاطاً هامشياً يأتي تزجية لفراغ أو هروباً من مواجهة القضايا الراهنة، وإنما هي إسهام فني في نشر القيم التي ينبغي أن يقوم عليها المجتمع وتبشير بها.

2- إن هذا الأدب من خلال انفتاحه على تجارب الغير قد استوعب أهم مكتسبات الإبداع الأدبي وأصبح يرنو إلى احتلال موقع متقدم في تجارب الكتابة في العالم، ولكن الطريف أن هذه الآليات المستحدثة ليست قشرة خارجية براقة وإنما هي تعبير عن المضامين الإيجابية التي نسعى إلى تكريسها من قبيل الديمقراطية التعددية وحقوق الإنسان إلى جانب قيم العمل والتسامح والانفتاح.

إن هذه الحصيلة التي وجدت في المناخ الاجتماعي والسياسي والحضاري الذي لبلادنا أرضاً خصبة للنمو والتطور، ما كان لها أن تتعزّز لولا إيمان أصحابها بأن التواصل التاريخي لا يتعارض مع الانفتاح على الغير والإفادة من منجزاته- وبهذا المعنى يجوز لنا أن نتحدث عن الدور الطليعي للأديب الذي غدا من المتعين عليه أن يضطلع بمهمة حضارية تاريخية تتمثّل في أن يكون محلاً للتلاقي الخصيب بين مقومات الهوية الوطنية والقومية وبين قيم العوْلّمة.

□□□

* بَلْجَة الصُّبْح *

شعر: د. علي الشَّابي

أقبلت كالغزال في بلجَةِ الصبح — وأرخت من الليالي سُدولا

فتنةٌ تنشر الضياء وتغْري — من سَنَى حُسْنها رؤى وعقولا

زهرةٌ تبعث الحياة بنفسي — مثل طلّ يُصيبُ ربعاً مَحيلا

حبّها روضةٌ غذاها أريجٌ — يبعث السّحرَ كالنّسيم عليلا

شَعْرُها اللّيلُ والخدودُ ربيعٌ — ريقُها العذبُ يجعلُ البحرَ نيلا

ريحُها الوردُ في الربيع، وقلبي — بلبلٌ لا يروم عنها بديلا

تتقرّى عيناي حسنَ حبيب — تخذ الوجدَ والحنانَ دليلا

لويرى العاذلُ الرقيبُ بعيني — لرأى الحسنَ والجمالَ الأثيلا

وانطوى عذله وهام هياما — فانثنى ينشُد الهوى المأمولا

وتراها مجدولةَ الكشيح تخطو — في دلالٍ عبيره لن يزولا

لحنُها الخطوُ والحديثُ نشيدٌ — يعتلي الشعرَ صورةً وأصولا

غارَ منه البديعُ([1]) كالزّهر يزْهو ... صاغه البُحتريُّ لفظا صقيلا
ومعانٍ منشودةٌ تتأبى ... أعجزتْ حافظا([2]) وأعيتْ جميلا([3])
وخيالٌ مجنّحٌ مستهامٌ ... نبعُه الشرقٌ زاخراً تأويلا
زانَها منْطِقٌ كهَمْسِ ورُودٍ ... لنَدىً عَاشقٍ يُغيظُ عذولا
أفعَمَ الطائرَ الخلي اشتياقاً ... فاغتدى يحتسي الجنى المعسولا
أفصحتْ والجمال ينهلّ سَكباً ... أمطرَ الكونَ حيرةً وذهولا
فتنادت بلابلُ الدوّحِ تبغي ... صوتَهَا العذْبَ مورداً وحُقولا
وخريرُ المياه أرْهفَ سَمعاً ... للحونٍ سحرية لن تَحولا
آهةُ الناي شجُوها قد توارى ... فالمزاميرُ رتلّتْ ترتيلا
جيدُها الدّر رّونقا وضياءً ... وكجيدِ الغزالِ ليناً وطولا
وعقيقُ([4]) الحبيب أخفى بُدُوراً ... حاطَهُ الوردُ حَارساً ورسولا
خَالُها مِسْكةٌ وشَهْدٌ مُذابٌ ... في كتابِ الغرامِ خطّ الفصولا
لاقتناص اللآلي في البحرْ سحرٌ ... دونَه سحرُ بابلٍ تفضيلا
عُسْرهُ اليسرُ والصّعابُ ضاعت ... صائغاتٍ منَ المنى إكليلا
نفحةٌ من معابرِ الخلدِ مطايّا ... أسكرتْ مزهري فبات عليلا
سكرةٌ غيبّتْ مواكبَ رُشْدي ... قد أفاضت من الحنين سيولا
رسَّخَتْ قبلةً على الخدّ ولهى ... مِنْ سناها بدا الهوى إنجيلا

---

(1) إشارة إلى وصف البحتري للشعر في قوله:
وبديع كأنّه الزهر الضاحك في رونق الربيع الجديد.
حزن مستعمل الكلام اختياراً وتجنّبن ظلمة التعقيد.
وركين اللّفظ القريب فأدركن غاية به المرام البعيد.
2 - حافظ الشيرازي: شاعر فارسيٌ غزل لقبه الفرس لرقة غزله بلسان الغيب.
3 - جميل بثينة
4 - اعتاد الشعراء الفرس تشبيه الشفتين بالعقيق لحمرته القانية.

فاجتنينا من روضة العِشق زَهراً وارتشفنا من اللّمى سلسبيلا
واحةٌ من مفاتنِ الكون صيغتْ وشّحَتْ نُضرةً وظِلاً ظليلا
وغذتْها اللحونُ من كلّ صوْبٍ فأفاضت من الجمالِ شكَولا
تتجلى حدائقُ الفرسِ([1]) فيها طرَّزَ العِشقُ سِحرَها الموصولا
فربيعُ الحبيب دوماً مقيمٌ كالربيع الصينيّ([2]) يأبى الرّحيلا
حبنّا نفحةٌ من الخلْد هبّت منه باءت "أضحى التنّائي بديلا"
فانطوى سِفرُها وجفَّ طِلاهَا ومِنَ الحبّ ما استحال طلولا
غيرُ مجدٍ في الحبِ كتمانُ سرٍّ فكلامُ العُيونِ أصدقُ قيلاَ

*** إضاءة:**

انتابتني حال شعريّة أثناء قراءتي لديواني الشاعرين الغزالين النابغة الذبياني وبشار بن برد اللذين حققهما العلاّمة الشيخ محمد الشيخ محمد الطاهر بن عاشور وذلك بقصد إعداد بحث عن (صورة المرأة في آثار الشيخ)، فعادت بي تلك الحال إلى استكناه تجربتي الشعرية في عهد الشباب، وهي النّاهلة خاصّة من مدرسة الشابي ومدرسة علي محمود طه، فرجعت إلى شعري الذي صغته في تلك الفترة منشوراً وغير منشور، أتأمله وأستجلي صورهُ فحفزني هذا إلى العودة إلى صوغ الشعر كما يعود الطائر إلى أيكته، وبذلك توقّفت عن إعداد البحث حينا لأعود إليه بعد أن صغت القصيدة التالية في جوّ مفعم بالصّور والأخيلة والأحاسيس والذكريات.

❒

1 - الحدائق الفارسية مشهورة بجمالها في الواقع وفي الشعر الفارسي
2 - يكثر الشعراء الفرس من التغني بالربيع الصيني باعتباره ربيعاً جميلاً ومتواصلاً بحيث لاينقطع من أقاليمها الشاسعة المختلفة المناخ.

لاَ مَــاتْ

شعر: محيي الدين خريف

أُعوذ فأُوجزُ لا مَاتِها
وهي لامُ الهوى ولامُ الجِراح ولامْ الوطنْ
ولامُ القصائدْ
ولامُ الجداولْ

- لام الهوى-

فلامُ الهوى لا تسدّ الطريقَ على العشقِ
وافتحُ لي الباب أوْ خلّني أقتحمْهُ
وأدخلُ عالم حبّي وأغرقُ فيه
وأجمعُ في حُوْزتي الكونَ
ثم أعودُ إليهِ

- لام الجراح-

ولامُ الجراح فلا تنكإ الجرحَ إن نامَ
إنّ الجراح إذا نكئتْ تستفزّ جراحاً جديدةْ
وإن تُركتْ فهي تحتاجُ ألفَ ضَميدهْ
فسهّر لها الليلَ وابقَ بجانبها
إنّ بعد الظلام صباحْ
وإن غاب طائرُها فغداً سيعودُ
ليفردَ للعاشقين الجناحْ

- لام الوطن-

ولامُ الوطنْ
فلا تتركِ الأرضَ أو ذرّة من تراب
فعبيرُ التراب عبيرُ الحياهْ
وكل اخضرار نديّ به جنّةٌ
والهواءُ دواءْ
فلا تشغلنك عنه الأماني الخواءْ
وما يعصر الذلّ من راحِهِ
وما يطرد الليل من نور مصباحِهِ
تمرغتُ قبلك في ظلّ شيخوخةٍ عاجلَهْ
ولم أحظَ إلاّ بصفقته الآجلهْ

- لام القصائد-

ولامُ القصائدْ
تتيمّني الشعرُ حتّى شربتُ القصيده
في كأسِ حرفٍ شقيّ
يطاردُني فأعودُ إليهِ
يا حاطباً في ظلام القصائدِ
ما كنتُ أعرفُ أنّ النيعم شقاء
وأن الذي في يديَّ هواءْ

فطاردْ وبعد غدٍ ستصيرُ المطارَدْ
وألفُ سلامٍ عليك إذا أصبح الكلُّ واحدْ

- لام الجداولْ-

تسرَّبَ صوتُ الخرير إلى أذنيَّ
وأصبحتُ أنظر من فتحات الشجرْ
إلى الماء يشرب ضوءَ القمرْ
فيوهمني الشعرُ أنّي أنا الحزنُ في عيدها
وأنّي المغنّي الذي لم يزل يحتفي بأناشيدها

❒❒

المهر

شعر: محمد الغُزّي

خطوُ منْ في ظلمةِ الليلِ؟
من الزائرُ؟
أنصِتْ: إنّه يرقى حجار البيتِ،
أنصتْ: إنّه يعبر درب النجمِ،
أنصتْ: إنّه يدنو،
فتحنا الباب: ماذا؟
هل هي الرّيحُ تذرّي ورقَ الخرنُوبِ؟
أم ماءُ المزاريبِ على العُشْبِ؟
هجسْنَا: إنّه الوهمُ إذنْ
فلنطبقِ الأهدابَ: لا شيءَ سوى خفقِ
الخطاطيف على الشّباك، لا شيء سوى
رجع النواعير
فأهلُ الخيل خفّوا لمياه النبعِ
واستوسَقَ رعيانُ القرى قطعانَهم
فلنوصدِ البابَ إذنْ...
لكنّنا حين هممْنا.. هتف الصبيّةُ
قلنا: كيفَ؟
لا حوذيَّ في الظُّلمةِ لا راعيةٌ
من أيّ نجمٍ هبط المهرُ إذنْ؟
أيُّ نبعٍ مبهم ألقاه في أعتابِنا؟
أيّ سحابٍ أزرق؟
كلاّ سنستعجمُ إن نحنُ سئِلنا عنهُ
كلاّ سنوارِيهِ
فلنْ يعلمَ أهلُ اللّيلِ ما نحن كتمنا
أو رجال السّيسبانِ القادمونْ
ما الذي أرجفَ حرّاسُ القناديلِ وماذا حدّثُوا
نحن لم ننبىءْ رجالَ النّهر
لم نكشفْ عن السرِ
ففيم استوجستْ خيّالةُ ..اللّيلِ إذنْ؟
وعلام النّاسُ إن مرّوا بنا يسّاءلُونْ؟
أيّها المهرُ آنحدر نحو البساتينِ
آنحدر نحو بيوت الماءِ
وليضربْ جناحُ البرق وجهيْ
ولتبحْ راعيةُ النّجم بما كتّمت:
إنّي ذاهبٌ أقفو خطى الصبيّة فالأرضُ رَبَتْ
وتدلّتْ كالعناقيدِ غيومُ الماء
ماذا لو دنونا من سياجِ الغابِ؟

ماذا لو دخلْنا؟
فجميعُ الصبيّةِ انسلُوا
ولم يستيقظِ الأهلُ ولا جندُ الجبالِ آنتبهوا
أيّها المهر انحدّر فاللّيل قد أوشَكَ
قد أوشكتِ الطيّرُ
وحرّاسُ القرى عمّا قريبٍ قادمونْ.
ما الذي يفعلهُ الصبيّةُ في منعطفِ النّهرِ؟
وماذا تكشِفُ النّسوةُ؟
ها نحنُ سمعنا العشبَ يختضُّ، سمِعْنا
الطيرَ يرتدُّ عن الغابةِ مفزوعاً
وتعوي في البساتينِ الذّئابْ
قالت المرأةُ:
ماذا لو تأثّرتَ خطى الصبيّةِ؟
ماذا لو تعلّمتَ حروفَ الماءِ
تقدّم أيّها الطفلُ
تقدم قبل أن ينتبه الأهلُ
تقدّم قبل أن ينطفىءَ النّجمُ
ويستيقظَ من نومهم الموتَى
تقدّم سلّتي ملأى
فخذ ما تشتهي
خُذْ بلحاً
خُذْ عنباً
خذ قرنَ خرنوبٍ
تقدّمْ ولتكن لي مرّة رعشتُكَ الأولى
إنّه اللّيل: فأبصرْ أيّها السّمعُ، وأنصِتْ
أيّها الشمُّ...

لقد هبّت حشودُ الطيّرِ
هبّت كل أسراب الجواميس،
وسالت في دمي كلُّ الينابيع
تشمّمْ أيّها السّمع وأبصرْ أيّها الشمُّ
فهذي الأرضُ تُدحْىَ
وجبال الماء تعلو
ويرفّ الضّوء فوق الغمر،
أرجىءْ أيّها اللّيلُ صياحَ الدّيكِ
أرجىءْ دورة النّجْمِ
وكن للعاشق المأخوذ هُدْباً
كن له مُخْتّباً.
أيُّ شيءٍ قد أتينا نحن في منعطف النّهر؟
وماذا كنت أبصرت؟
تمهّل أيّها الفجرُ فلا توقظ خيول الماء
من غفوتِها
لا توقظِ الموتى
ودع كلّ بحار الأرض تدفقْ في دمائي
دع رياح الكون تعصفْ كلّها في يدي
قالت المرأةُ:
– قد أدركتَ سرّ الماء
أدركتَ الذي خبّأه الأهلُ
وها أنت تعود اليومَ
أدري بالذي كتّمه الفتيةُ
أدري بالذي تكنزهُ حقواكَ
أوصِدْ بابك الآن إذن
عمّا قريبٍ سيصيح الدّيكُ في البيتِ

وتأوي بالتوابيت الخيولْ
قبل عشرٍ غاب عن صبيته المهرُ
فقلنا: ربّما ضلّ طريقَ البيت،
قلنا: ربّما استوقفه الموتى على الأبوابِ.
وانفضّت حشودُ الصبيةِ آنفضّت
نساء الغابةِ انفضّت خيول الماء،
قلنا لن نرى المهر على الأعتابِ
لن نمسَحَ حقويهِ
لن ننفض عن متنيه وعثَاء الطريقْ.
نحن كنّا قد تواصيْنا
فقل كيف نكثنا العهدَ؟
قل كيف كبرنا
نحن لم نحفظْ عهودَ الماء
لم نرع مواثيقَ الينابيعِ

بماذا نحتمي الآن إذنْ
أيّان نمضي إن تجافتنا البيوتْ
لا نجمةَ في ماء الينابيعِ
مضت كل خيول اللّيلِ عن أعتابِنَا
وارتحلَ الصبيةُ
هل كنا صغاراً ذاتَ يومٍ
هل حملنا النّجم في سلتّنا؟
هل خبأنا زُمّجَ الأنهارِ في أثوابنا؟
ربّما
لكنّنا الآن نَظرنَا
لم نجد في الكفّ غيما، نظرنا لم نجدْ نهراً
فأنوار الرّعاةْ انطفأت
ومَضَى في ظلمةِ اللّيل أبي

❒❒

في رحاب المتوليِّ

شعر: الميداني بن صالح

هذه النخلةُ لي،
والظلُّ ظلّي..
من سنا الخُلدِ،
وإبْراقِ التَّجلِّي...
إنّها ذاتي وكُنهي
إنّها الجزءُ الذي أصبحَ كلِّي.
*****
*****
هذه النخلةُ لي،
قفْ،
وترجَّلْ،
أبداً،
لا تتعجَّلْ...
إنّها الظلُّ الذي كان،
وما زال المبجَّلْ..
فاسمع الصوتَ،
من الصَّامتِ نُطقا...
ومن الغائب صِدْقا..
وأَنخْ رَكْبكَ،
بالظّلِّ العَميمْ...
إنّه الطّيفُ القديمْ..
وأرحْ ظَهركَ للجذعِ،
تَطهّرْ،
بالسّكوتْ...
في رِحاب الملكُوتْ..
واسْمعِ الصَّوتَ الذي،
زلزلَ في البدءِ،
جبالاً وتلالاً وهضاباً،
فغدَت كالعهْنِ منفُوشاً،
خيّوطاً...
منْ بيوتِ العنكبوت...
إنَّه الصّوتُ الذي مازَج،
بين العُهْر والطُّهْر،
نَقاءً واشّتهاءً...
وظلاماً وضياءْ..
وخلُوداً وفَناءْ...
حيثُ ألقى،
بعناقيدَ منَ التُّفاحِ،

في كل البيوت
فاحتواها الظلُّ،
غطَّاها...
ولاذتْ بالسُّكوتْ...
******
******
هذه النّخلةُ لي،
قفْ،
وتعلَّمْ...
إنْ تعلّمتَ تألَّمْ،
إنْ تعلَّمْتَ، تألّمْتَ،
حذارِ...
أيّها العزُّ، حَذارِ...
أبداً، لا تتكلَّم...
ها هُنا النّاسوتُ تحت الظّلِّ
في البدءِ تعلَّمْ
ها هُنا النَّاسوتُ تحتَ الجِذْع
بالمهدِ تكلَّم...
بحروف من جراحْ،
ودماءٍ لطَّخت كلَّ البطاحْ،
وبصوتٍ يتألّمْ..
فبه اللاّهوتُ قد حلَّ،
كطيفٍ...
أو كضيفٍ...
طاهرِ الأحرفِ، والكفّيْنِ،
فاستأذَنَ...
يسْتأنسُ كالحُلم رفيفا...
هامِساً،
صوتاً خفيفا...
لم يكُن، صوْتاً مُخيفاَ...
باحَ بالسِّر القديمْ...
مِن سنَا نُور العليمْ...
ثم سلَّمْ...
******
******
آه لكنْ...
أيكونُ الصّوتُ رجْعاً،
ليقيني...
أيكون الحرفُ جمْرا،
لظنوني...
أيكون الجرح بوْحا،
من حنيني...
أيكون الطّيف هديْاً،
لشكُوكي...
وظنوني..!؟
هذه النخلة لي،
والظّل حِضن،
لغيابي وخُمودي...
وسكُوني وخُلودي...
ولهَدْيي وفتوني...
******
******

نخلةٌ أنتِ،
وهذا الظِّلُّ ظلِّي...
في متاهات اغترابي...
وابتعادي واقترابي..
وكُنوسي وخُنوسي...
وبُزوغي وانْسيابي...
أنتِ يا سجَّادةَ الوَجدِ،
إذا قُمتُ،
منَ الشَّوق أُصلِّي.
في فضاءات التَّجلِّي...
أنتِ لي ظلٌّ،
به السّرُّ استتَرْ...
قبلَ أن تُولدَ شَمْسٌ وقَمَرْ
أنتِ، يا سرَّ الخلودِ..
وبُراقي، للصُّعودِ...
خلْفَ آفاقِ الحدودِ...
******
******
يا بُراقَ الرِّحلةِ العظمى،
أغثني...
يا بُراقي...
دقّت السّاعةُ،
حانتْ، لانطلاقي...
طِرْ وسافرْ...
بجناحينِ من الشَّوقِ المُغامرْ،
ألقِ بي،
فوق جبالِ النُّورِ،
عليّ...
من على دوحةِ بُركان التّجلّي...
وأراجيح المطَلِّ...
منْ سنا الطّيف الأجلِّ...
يختفي، السُّقمُ الذي لازمني...
وامتصَّ ظلّي...
يمحي...
ما خُطَّ عني، في سجلّي...
يتدنَّى الجزءُ منّي،
نحوَ كلِّي...
******
******
يا بُدورَ النَّشوةِ الحُبلى،
أهلّي...
سَاطني وجدي اشتياقاً،
لرِحاب المتولّي...
وفضاءاتِ التّجلّي...
يا بدورَ النّشوةِ العُظمى،
أهلي...
واغسلي بالنّور،
هذي النخلةَ الحُبلى،
بنُسغي...
وبحبي وبذاتي...
وتراتيلِ صلاتي...
فأنا منها امتدادٌ...

وهي لي،
جزئي وكُلّي...
هذه النّخلةُ لي،
والظلُّ ظلّي...
******
******
هذه النَّخلةُ لي،
أمٌّ رحيمه...
وهي لي زوجٌ...
وخدنٌ وقرينه...
وهي لي
كهفٌ عريشٌ،
حضنُ دفءٍ،
وحنانٍ وسكينه...
وهي لي،
في ليلة الرَّغبةِ،
والشّهوةِ،
لي،

أحلى نَديمَه..
******
******
كم سكرنَا!....
وعلى أجنحةِ الرَّيح سَهرنا...
وانتشينا...
أنتِ أترعْتِ كؤوُسي بالحنين.

ليلةَ البوحْ وإشراق اليقينْ
فانصهرنا...
بين ظلِّ الظّلِّ،
غنّينا...
تمايلنا، رقصنا...
هسهساتُ السَّعف النّشوانِ،
همسٌ، ورنينْ..
كان لحناً قُدسياً...
وتعرّيتِ...
تعرّيتُ...
تعرّينا...
خلّعنا، جبَّةَ الاثمِ سويّاً...
لم تكوني أبداً،
يا نخلتي،
يوماً بغيَّا...
لم أكنْ يوما شقيًّا...
وتعرّينا، سويًّا...
دونَ خوفِ أو خجلْ.
والتحمنا..
لفَّنا الوجدُ...
وألقانا، بآفاق الأزلْ.
فغرقْنا في الذّهولْ.
واحترقنا، بالحُلولْ
هذه النَّخلةُ لي،
أجنحةٌ...
سلَّمُ نورٍ للوصولْ.

وأنا الظّلُّ لها
عرض وطُول.
******
******
فاعقل العيسَ،
توقّف، يا زمانْ.
وامحُ، ما خطّطت حدَّدت،
وأغربْ، يا مكان.
واهدمِ الأسوارَ والسِّجنَ،
وسارعْ،
فلقدْ آن الأوانْ.
أنتما، من رَحمِ النَّخلةِ،
والظلِّ الظّليلْ.
توأمانِ....
قبلَ أن يُولَدَ فجرٌ،
أو أصيلْ...
وقياسٌ وحسابٌ،
لعريضٍ...
أو طويل.
أنتما، والحدثانْ.
أنتما، والثّقلانْ
وأعاصيرُ الفناءْ..
وانبجاسُ النّورِ،
أطيافُ ضياءْ...
وتراتيلُ نشيد الشّعراءْ
وارتعاشاتُ دُعاءِ الأنبياءْ
نسماتٌ من عبيرْ..
وشوشاتٌ من خريرْ..
حشرجاتٌ، وأنينٌ
ودماءْ...
كلُّها، كانتْ،
بظلِّ الظّلِّ،
أمواجُ سديمْ..
وضبابٌ، وطيوفٌ..
وهباءاتٌ تطوفْ..
لفَّها الظّلُّ القديمْ.
قبلَ جنَّاتِ النّعيمْ.
قبلَ بَرْقٍ وغُيومْ.
ورُعودٍ ورُجومْ.
فجرَّت نارَ الجحيم
بفتُونٍ واشتهاءْ...
وجنونِ الشُّعراءْ...
وجراحِ الأنبياءُ...
وحنينٍ للبقاءْ..
******
******
هذه النّخلةُ لي،
والظّلُّ ظلّي...
وأنا ضيفٌ وطيفٌ...
برحابِ المتولّي.
وفضاءاتِ التّجلي.
وأراجيحِ التّدني...

وارتعاشاتِ التّدلّي...
حيث، لا يوجدُ
بوّابٌ وبابْ..
وستارٌ وحِجابْ..
وجنودٌ وحِرابْ...
وسُيوفٌ،
خبرت قطْع الرِّقابْ...
وأفاعٍ وذئابْ...
وسؤالٌ وجوابْ...
وموازينُ حسابْ...
لجزاءٍ وعقابْ...
******
******
ها أنا الآنَ طليقٌ...
وأنا ضيفٌ رفيقْ...
ونديمٌ وعشيقْ...
زالَ شكّي...
غابَ خوفي...
واختفت كلُّ ظنوني..
وانتهى، عجزي وضعفي،

فلقد طهَّرَ فيضُ الخُلدِ
منِّي...
خلَدي، رُوحي عُيوني..
فتخطيتُ وحَطّمتُ،
تجاوزتُ قيودي،
وحُدودي وسُجوني...
ها أنا الآن طليقْ...
وأنا ضيفٌ لصيقْ..
ونديمٌ...
بين إحرامي وحلّي...
بين أشواقي ودَلّي...
فكؤوسي...
منْ سنا الطَّيف الأجلِّ
في رِحاب المتولِّي...
وفضاءات التَّجلِّي
يا بُدورَ النَّشوةِ العُظمى
أَهِلِّي...
******
******

□□

تشكيل

شعر : أولاد أحمد

النساء

الجميلات – بعض الجميلات – واحدة : تلك : صاحبة الشّال : صاحبتي
في الحروف نقاط لها ومجاز : لأوفيد :
أمّا الطيور – فتحت المعاطف – تنقر قلبي
وترقص ، ترقص ، ترقص ...... هذا الشّتاء

النجوم

وقد نبتت – هكذا – مثل فاكهة في غصون السّماء

الرّعاة

البهاليل . في السّفح . تحت العرار .
تراقص سبع أفاع مزاميرهم
والحروز المطرّزة الخضر تحرسهم من ذئاب المساء .

الحمائم

تزحف – مثل الجنود – على جيد " جان دارك "
أرقبها – ثملاً – من مقاهي الفرنجة
مع كاتب أرمني يلفّ الحشيش ... ويتلو الرثاء .

القصائد

آخر ما يقرأ الجند قبل الشّهادة
أوّل ما تهمس البنت للأب ،
تحت الفوانيس ... في ساحة الشّهداء .

الخيول

على قلق تجرح الأرض
غرباً !... تقول فوارسها
لا إلاه سواه ! ... يردّ الصّدى في الجبال
صوامع تعلو
نهود من الجير بيضاء
خط
كتاتيب
فقه
تفاسير
حرب
خوارج

أضرحة الأولياء

القصائد

أزمنة لا مكان لها
وحروف تكاد تقول لقائلها : من أنا ؟

العرائس

– فوق سرير الصبي –
يقبلها ، باسمها ، ويناولها الشّوكولا

الغيوم

تروي دعاء القبائل
تمشي ، على رسلها ، في الجداول ... نحو الحقول
تقول :
– إلا هي ! .. تأخرت ! ... معذرة !
للسّنابل والحلزون
وللوّز والكستناء

القصائد

" أعسر من قلع ضرس "
يقول الفرزدق
قبل تدبر عود وشيح .. وبيت صريح الهجاء

النّهود

– على كلّ لون – معلقة في حبال الغسيل
تسيل حليبا
... يهب عليها هواء الهواء

الخلاخيل

ثأر الذّكورة من أسرها في مياه النساء

السّلاحف

حقّ صديقي من الشعر .... لا أدّعيه
يكرّمها بحروف تحاول معنى وأجنحة
بحروف تسيرُ ... تسيرُ ...
ولكنّها لاتسير إلى !

القصائد

سبع صبايا نزلن إلى النّهر
– قبل الغروب
وشيخ ، وراء الضّفاف ،
يباعد بين الغصون
يهم بهن طويلا
فينسى يديه .. وينسى صلاة العشاء

الحبيبات

لُبنى . وسُعدى . ولَيلى .
وعاتكة . وجنان . وإلزا
يهيّئن بيت القصيدة للشعر ... والشّوق للشعراء

النُّحاة

– على رأي نيتشه –
إذا ما احترمنا قواعدهم
(في جميع اللّغات)
تظل الحقيقة سيدة البدء والمنتهى

القبائل

تحمل تاريخها فوق صبر الجمال :
عقودا من الجلد مطوية في الجرار
مناقب أجدادنا في الأساطير
أتربة الصالحين

الجداء

تنظّ على الزّرع جذلانة يا أبي
وكلاب القبيلة مربوطة في الكلاب
وإني لأسمع في الشّرق زغردة وآذاناً
رصاص بنادق أسمع
ألمح أعلام تونس ، بيضاء حمراء ، تنبت فوق الذّرى والأعالي
– إذن رحل البيض عن أرضنا رحلُوا "
قال جدي :
وصلّى بنا ، فوق برنسه ،
بين تلك الجداء

الوشاة

من الأرض
– بالتلفون _
يدسّون
فاصلة
بين زوجين
في
مركب
سابح
في
الفضاء !

الدقائق

لو أنّ فيها دقائق أخرى
وذكرى لذكرى
وزينب تحبو على بسط من جلود المواشي
وحلوى لزينب
حتّى أفوز بتقبيلها قبل دوري
ولكنّه الوقت :
أورثني أمّهات ثلاثا
وإسما كثيرا
أنا : كم أنا ؟ من أنا ؟ كم أنا!

السجلاّتُ

مطروحة في " كراج " الوزارة
يفتحُها الجرذ للضّابط العسكري
سجلاّتُ من أكل النملُ أسماءهم
قائمات الذين اختفوا – في العناكب – قرب الزّوايا
ثلاثون مرّت
وخابَ افتراضُ المؤرّخ :
لم يعثروا في السّجلات عن ثلاثاءٍ
ولم يجدوا في الأسابيع من أربعاءْ !

المعاني :

تباعُ – هنا وهناك – مع البصل النَيّئِ والفُسْتقِ الفارسيِّ

ولكنني حين أمضي إلى السّوقِ لأشتري
غير رطلينِ من رَمَلِ البحتريّ
المعاني – إذا – : شهوةٌ واشتهاءْ

القصائدُ
نوعٌ من الشّعر أزرقُ
والحبر أحمرُ ... في كربلاءْ

□□

الصّحافيّ الأبيض

شعر: منصف المزغنّي

نتّفقْ
يا بُنيّ

نتفق
ربّما نفترقْ

إنّما نتّفقْ
أيُّها الصحفيّ النّزقْ
عموماً –بشرطٍ– مقالك جيدْ
إذا أنتَ تحذفُ مالم يرُقْ
– مثلاً–
هاهُنا أسكن الحركة..
فهناك سنجزمُ فعلاً يَجيءُ
لنرفع فعلاً مضى
نُبدّل "نُونَ" أُنّدِدُ "راءْ"
رغمْ ماقد جَرى
ولفظةُ "جائرْ"
تظلُّ على حالها إنْ محوتَ التي
تحتَ "جِيمْ"
تَرقّبْ
ترقّبْ
عَليّ لك الآن حقٌّ
فلفظة "جائر"
جميلهْ
إذا ما تركتَ التي تحتَ "جيم"
ونَصَّبْتَ أُختاً لها فوق "راء"
كلامِي هُراءْ
وأنتَ هُنا –صحفيٌّ بحقّ–
يُصافحُهُ ويدسُّ له مايسدُّ
الرّمقْ
و"عمتَ مساءً"
وبات الصّحافيّ
يُبَنّجُ وجهَ الورقْ
لحدّ انطفاءِ النّباحِ بجوفِ القلمْ
ونامَ الصّحافيُّ نامْ
قُبيل الغَسقْ
* * *
أفاقتْ من البُنجْ بعضُ الحروفِ
تُهسْهِسُ سَقْفَ المباني
لمّلمَتِ المفرداتُ
وخُلخِلَ بابُ المعاني
تسرّبت الكلماتُ تباعاً
مضمّدةُ بصياحِ الأغاني
هي الكلماتُ
–إذن–
من مِدادٍ تُزغردُ في الورقاتِ
الطلاق
الطلاق
الـ ط لاق
والصّحافيْ
استفاقْ
وانبرى سائلاً:
"يا تُرى
مالذي قد جَرى
والذي قد سَرى
في الغسْق"
* * *
والصّحافيّ

❑❑

لأنّ الذي سوف يأتـي ... أتـى

شعر محفوظ الجرّاحي

قديماً ... انتحلنا صفة النخيل
وقلنا لعصافير المدائن
تعالي .. تعالي استظلي...
ثم هيأنا المساء، للرحيل.
وهيأنا النساء شجرا، يقتفي أحلامنا.. وقلنا
سلاماً على الذاهبين.. قديماً تنبأنا أن للّيل
أشرعة مواقيت تختزل الفرح المسجى
مابين ترياق الرغبة والموت بأعتاب
الياسمين..
لتحيا البلاد..
بكل المعاني .. وكل الأغاني
والعلم المفدى
هتفنا.. هتفنا.. باسم البلاد، وقلنا نموت
ليحيا النخيل، وتتعتق زيتونة في المزاد..
قديماً... تعتق العشب في رؤانا.. اتحدنا
بلون السماء، وأعلنا للبحر بيان النخيل...
تهيأت كل الصبايا
ترشحن بالعطر والذكريات وقلن..
سلام على العاشقين،
فلا بأس من خطوة للوراء ،
فكل الجياد لها كبوة في المسير..

ونمنا على وحشة ذاك المساء... وماذا ؟!
حلمنا كثيراً، يطوقنا صرد الزنزانات..
الأمهات حملن القفاف، وقلن للشجر
المتوج بالعتاب.. رجاء!.. هو الصبح
آت.. نثرن الضفائر للريح، فجاءت الريح
ولهى محمّلة بالنشيد.
نما سنديان الحروف على جدران
الصفيح، بكت سنونوة لفراق الأحبة
قالت... لقاءً.. لقاءً.. ستأتون مثل النسور
من غابة الروح والذكريات، وكانت بلادي
تعد المواسم للعاشقين وترمي المواعيد
للقادمين.
سلام لطفل نما في يديه الرغيف..
سلام علينا ربيعا،
نما في عيون الخريف
وقلنا ستأتي الخطاطيف
تملأ هذا الفراغ
وتسأل عنا النوارس والأشرعة
بأن الصباح سيأتي ويسقط ما تبقى من
الأقنعة..
تمردنا لما احتمينا بخمر الإله...
وقلنا يا عصافير المدائن

ها نحن... استظلي
صرخنا... صرخنا.. "قرطاجة" لا تنحني..
باسم الزياتين والتين .. لا تنحني..
الآن نما في العروق بدء الصباح؟
فاتقدي مثل نار المجوس.. ولا تنحني
"فروما" تعرت على عهرها
واستحالت صقيعاً يهدد دفء الجنوب
....
....
صباحا... صباحا..
يجيء السحاب بلا أجنحة
تمدّ الشمس ضفيرتها ،
تغازلها سنبله
ويمضي الغزال لبعد جديد..
لرحلته المقبله..
بلا موكب أو هتاف
تعيد الفصول أشياءها المهمله
فنحلم مثل النوارس أن للبحر أسراره المقفله
وأن البلاد التي عز فيها المطر
ستأتي الرياح لها بالمطر..
ويأتي اللقاح لها بالثمر..
....
صباحا... دوى في العروق النشيد
فهيأنا للسفر...
وقلنا سلاماً على أرضنا الطيبه
وقلنا نموت ولا تنحني ... كالشجر!
لأن الذي سوف يأتي...

فقيراً كما الفقراء...
يغني صباحا... لكل البلاد،
يعانق فينا نخيل الجنوب، وقمح الشمال...
يضم إليه الخطى اللاهفات... يجيء على
صهوة من صهيل... يحن لطفل بكى في
الدروب... لأن الذي سوف يأتي..أتى
ضاحكاً كالربيع، يضم التراب، ويسأل عن
وردة شرّدوها قبل الغروب، يقول
لقرطاجة... اتسعي... اتسعي...
اتسعي...
فهذا الصباح لك ..
وهذا النّدى..
وهذا الربيع لك..
وهذا المدى .
فلا تنحني..
واسمعي صوتنا في الصدى
صباحا... تكون البلاد لنا..
صباحا... نكون لها، السفح والمنحنى...
فلا تعدّوا المراثي..
فإن الذي سوف يأتي.. أتى
يوزع الحلوى والأغنيات
لأطفالنا الجائعين...
يقول -لمجردة- هات مزاميرك..
إن بنا رغبة للغناء...
فلا تعدّوا المراثي ..
فإن الذي سوف يأتي ... أتى..
فإن الذي سوف يأتي ... أتى...

قمرُ الغياب

شعر : جميلة الماجري

ألفاً حمَلْتُكَ في الرّحيل وما تعبْت
ألفاً على الأهداب محمولاً ظللْتْ
قمرٌ وألفٌ.. والطريقُ إليك أقربُ منْ يدي
لو كنتُ أقدر أن أمدّ يدي لأقطفكَ .. فعلت
قمرٌ وألفٌ .. والطريقُ إليكَ أقربُ من دمي
لَو كنتُ أقدر أن أجيء إلى دمي
فلم رحلتْ
قمرٌ مقيمٌ في دمي
وإذا استضأتُ به احترقتْ

***

كان النخيل رفيق غربتنا
وكان الليل يوغل في السؤال
وعلى ذُؤابات الجريد يلوح ضوؤكَ
مِثْلما الأسياف لاحتْ دونَما كفٌّ
لتُشرعها الرياحْ
والخيلُ لا حتْ دونما فرسانها بِيضّاً
ليركبها/ من قبل موعده الصباحْ

ويجيئُك الوطنُ الغريقُ بمائه
والماءُ يحمل ضفتيه وأرضَهُ
وأجيء وحدي – في الهوى–
نتقاسم الحلم القديمْ!
وحدي.. أجيء إليكَ مابين المحبّة والمتابْ
وأنا الظعينة في هواكَ .. ولو ثويتْ
رحلتْ دمائِي تستدلّ فصيلها
والروح لم تخطئ ثناياها ولو
سرقوا الطريق إلى هواكْ
وحدي أجيء إليكِ عائدةً إليْ
وكأنّني ...
ألفاً قطعتُ من الزمان وما بَرَحْتُ
لا العشقُ أوْرَثَنِي سواكَ ولاَ طَلَبْتُ
أن أستضيء بغير ضوئكِ أو رغبْتُ
في أن ألوذْ بغير فيْئِكَ أو شكوتْ
لهبَ التوهَج في دمي...
أو كنتُ من ظمئي اشتفيْتْ

عُمْرُ الظمَا ألفٌ .. وعمر الشوق ألفْ..
والألفُ أضيقٌ من مَداكْ
والحلم أصغر من هواكْ
***
ها اسمُكَ المنفيُّ يكبر في الخرافةِ
ثمَ يُزهِر في الشفاه
قمراً بليل القادمين من المياه إلى المياه
والحالمين وما غَفَوْا
والواقفين على مدارات الرياحْ
قمراً يشع من الغياب على الغيابْ..

□□

وضّاح

شعر : محمد العوني

أي سِلْكِ ذهبْ
أيّ خافيةٍ يشتهيَها فتَى من لهَبْ
قبْضةُ العزِّ هُوَّ وفي قبضة العزِّ
يُجري عليَّ تصاريفَ وجدٍ
يفاتحني بمراكبهِ
ثمّ يبحثُ عن مرفإٍ في قراري
ليَسْكُنَ فيَّ إليَّ
لئنْ تسألوني؟
بلى... سندي وصفيّي
فهلاَّ أذنتمْ لأطوي هواه وهلاّ أذنتم لينحلَّ في الروح
شمساً
وينْسَلَّ للعينِ ضوءاً
وللسرّ ألاّ يُصَرّفَنْي في سواه

***

نسوةٌ الحيّ لمّا عَلقْن تقاطيِعَهُ...
قاطعاً كانَ ... كالَّمغنطيسِ
وكنّ الصفيحَ تهيَّبْنَهُ
وتساقَطْنَ منْ شبقٍ
فسمحنَا لهُنَّ ... مسحَنَ عليهنَّ منهُ
جفَفْنَ كأوراق داليةٍ في الخريفْ

***

قالَ راوٍ لأهلِ المدينة:
إنّي أرى انفجار الذُّرى في الجبالِ
وإنَّ إناث الحجارةِ
عانَقْنَ شوقاً ذكور الحَجَرْ
أو وَضَعْنَ الحصَى في التّلالِ
فماذا جرَى ؟؟؟
قالت الأرضُ للبحر:
خُذني إليكَ
فَنَظِّفْ أديمي
ويمَّمْ سُهُوبي
لئنْ وطأتْني خطاهُ
وبي وَسَخي
قسماً لُعبةً للعناصر والمُنتهى لأكوُن
مثل صفصافة ريحُهُ دحْرجتني
فلما انكسرْتُ وجمَّعني
عُدّلَتْ ارتكازي يداهُ
وصارت مواقيتُهُ وجهتي ودليلي
فيا بحرُ قلْ:
إلْزَمي يا سماءُ التّواضُعَ
هذا فتى بالهلاهِلِ يردُسُ للكبرْياءْ

***

عينُ عيني يُغرْغرها الفيضُ
حينَ تخوضُ ذُهول التأمُّلِ
فَلْتَتَقرَّ لهُ عينُ قلبي إذنْ:
" ياغدَا أين عرَّافُك؟
نذرٌ علينّا نذوبُ نُذُورا

فللرُّوح كُنْ روحاً ومُكاشفةً
كيف يغدو الفتى؟؟
هل إلى الدَّلو في البئرِ
حتى يُناسخَ يوسفَ والأنبياءْ؟
أمّ إلى الشعر يصبُو
نُزيِّنْ له هيبةً
أوْ جرارا من الحُلْمِ والأصْفياءْ"
" والذي هوّ هُو والذي هوّ هُو
والذي هوّ هُو ظاهرٌ وحدَهُ
والذي هوّ هُو بيِّنٌ حبُّهُ
والذي هوّ هُو لاهبٌ مثل طيْفْ
والذي هوّ هُو ساطعٌ مثل زيفْ
والذي هوّ هُو
نبَّهتني الرموزُ إلى أن جيل النبوءاتِ
مختزلٌ
في الفتى
فخلعتُ عليهْ رضاي

❏❏

يغضبني أنني لا أغضب

شعر: محمد مصمولي

-1-

يُغْضبُني
– إلى حافة الضحكْ–
أنني

لا أغضبْ
وهذا الحبرُ
الذي بهِ
أكتبْ
محض دم
يسفكْ
على الورقِ الأبيض
باللون الأسود
أو الأزرقْ
ليشردَني مَوْجَةً
أركبها..
بلا جسورْ..
بين أسئلةِ أرقٍ
لا ينتهي
ونداءاتِ أفقٍ
لا يُدْركْ
***

-2-

ويَضْحِكُني
– إلى حافة البكاء–
أنني...
لا أضحكْ
وهذا الوقت المدّلْل
يأتي...
متى يشاءْ،
وعندما يرى
حبري
على الورق الأبيضْ
محض دمٍ
يُسفَكْ
يَخَالُهُ قهوتَهُ العربيةْ
أو
شرابَهُ المفضلْ
فيحتسيهِ..
كمصاصِ دماءْ
بلهفةٍ...
لا توصفْ..
يترشَفُهُ..
رشفةً.. رشفةْ
كما المريضُ.. يتناولُ
دواءَهُ الخصوصي
أو.. الحشّاشُ.. يتناولُ
مخدّرهُ المفضّلْ
لتهدئةِ
هذيان "البارانويَا"
وهلوسات انفصام الشخصيةْ
في النظامِ العالمي الجديدِ
للفوضى الكونيةْ
***

-3-

وبين استحالة الضحكِ
والغضبْ
في هذا الزّمن المربكِ
أرى دمي
على الورقِ الأبيضْ
محض دمٍ
يسفكْ
مع دمٍ إلانسانْ
مِنْ لبنان وفلسطينْ
إلى راوندا والشيشانْ،
ومروراً،
بالبوسنة والهرسكْ
وباللامكانْ

***

كذا أنا، الآنْ...
يُغْضِبُني
- إلى حافة الضحك-
أنني
لا أغضبْ
ويَضْحكُنِي
- إلى حافة البكاء-
أنني..
لا أضحكْ
أ.. أَكونُ قد أصبحتُ
محضَ ذاكرة للنسيان؟

الخزّاف

شعر: حافظ محفوظ

(1)

كن فكرة في الرّيح وأطلقني وراءك

كي أرى..

هيّأتُ آنية من الفخّارِ للدّعوات والحلم الأخيرْ

لترتع الغزلان في بيتي وترتاح الطّيورُ

وها أنا أنضُو نهاراتي البليلة عن مجاري الليّل

ها أنا أحلب الأضواء من ثدي الأقاصي صامتا

أبصرتُ أجساداً من القطن النديّ تجرُّ غاباتٍ

وكانت لي ظلالٌ في الجدار محوتها

.. ورسمتُ راياتي.

وحيداً،

أنزع الأقفال عن لغتي، أعيدُ لها القداسات التي ارتقبت

مزاري والبهاءَ البكرَ والماءَ المسجَّى في الأغاني، لحنها البدويَّ

والصّبوات.

(حين مددْتُ آنيتي إليك تركتها وصببْتَ غيمك في شفاهي.

لم أقل شدّني، فلقد هويتُ وأفلتتْ منّي صباحاتي)

***

وحيداً،

كان لي صحو الجداول،

أرْهَفَتْ سمعي

ودّلتني على حدسي،

ودلّتني على أسرارها لغتي

وقادتني إلى صوتي عَذاباتي.

***

أنا الضوءُ المصوّبُ نحو وادي النّمل أحرسهُ

من الجند النّيام على الجيادِ وأحرس

الخوف الذّي أضحى كلاماً في الوهادِ وأحرس

الموتى من الموتِ

وأطلقها فراشاتي

***

دمي غليانُ أغنيةٍ على شفةٍ

وكفّي نيزكٌ ضالٌ يدقّ على الكواكب نوره

ويدوس مشكاتي

***

ولا أسماءَ لي.

لا ماءَ في الوادي!

وذا طيني هممتُ به فما لانت جوانبهُ

وذي ألوان إبريقي أمحّت

لا ماءَ في الوادي!

وذي كفّي تكوّمُ حفْنة الأضواء تدعكها

فتفلتُ من شقوق أصابعي وتطيرُ

(هيّا رفرفي يا حفنة الأضواءِ في سحبي وردّي الماءَ للوادي..)

***

أباركُ هذه الكلماتِ والماءَ الّذي ما زار أحلامي

وصلصال الدوارقِ؟

عريهُ المنذور لأمرأة تعيّرني تماثيلي بها.

(من قال إنّي لم أكنْ أنثى ولم أفقه شفاهي عند خزافي؟

وبي برهان شهوته،

أصابعه التي أخفت حرائقها على جسدي

وها موّاله

ما زال يرتع فوق أطرافي

وها خدّي نمت به جنّةٌ من لمسه

من قال إنّي لم أكنْ في كاسهِ؟)

(2)

هيأتُ سَمَاواتي

زيّنتُ النّجماتِ، رددتُ لها ثوب الأعراس،

جمعتُ لها أعشاباً من حقل الياقوتِ

وطوّقتُ الشمس المشدودة في أعناق الطّير

بنيتُ ممالك من أبجديات خضر

تستتبت أبجدياتٍ خضرٍ،

تستتبتُ أكوانا

وأضأت ثنيّاتي.

(ربّما أيقظتني أناملك السّاهرات على حفنة الضوءِ

كي أتعلّم نحت الصباح لها)

ربّما استنبتتني الرّؤى

فنبتّتُ من الحلم صفصافةً

فليحطَّ على ساعدي الغيمُ، وليسهر النّجمُ فوق ذراعي.

***

أنا خزّافُ هذا الضّوءُ

أرفعه،

أشكلّه،

أديرُ قوامه،

أحنو عليه

أقول يشبهني

ألوّنه

ولكنّي إذا نزل الظّلامُ أراهُ يتركني

وتسقطُ في يدي الألوانُ

(ها أنذا أفتّش عن معادن لا تفارقني إذا سوّيتها وتظلُّ تستُر عريّها الألوانُ).

□□

الخاتمة

شعر: محمد الهادي الجزيري

حزين تماما كما تشتهيني السماء
وبي رغبة في عناق العناصر قبل الرحيل
ولي دمعة فوق خدّي
وبي دمعة في قرار مكين
وبي غصّة قد تكون القصيدةَ
أو وهمَ نفسي الجميل
وقد لا تكون سوى غصتي الدائمةَ
حزينٌ أعدّ ديوني وأحلامي الذاوية
وأحصي الجسدْ
جمرةً؛ جمرة
الفراشَ الذي ما نَضَا عنْه ألوانهُ الزاهيةْ
والرخام الذي لم يضىء ليلة للحزينْ
حزينٌ أعدّ ديوني وأحلامي الذاوية
وأحصن حصّالتي الخاوية
وأملؤها بالزفير
حزينْ كما ينبغي للثور
فسبحان ربي العظيم
هداني إلى الحزن طفلاً
وعلّمني كيف أخفي دموعي عن العالمين
وكيف أصوغُ من الحزنِ لحْناً يروقُ لهمْ أجمعين
وأوحي إلى الريحُ أن شردّيه
لأكتب شعراً جميلْ
****
حزين وقد قلت بالأمس:
إنّي حزين
وإنّي أنا عبدكم
وفكوّا وثاقي وأخلو سبيل الفصولْ
وحجّوا إلى حانتي أجمعين
ستختارُ تونس بعلاً لها ثمّ تنكرهُ
ومن يعرف امرأةً لا تخونْ؟
دعونا إذنْ نتدحرج من حضنها بالتوالي
وتحلمُ بامرأةٍ لن تكونْ"
حزين كما ينبغي لأكون
وبي رغبةٌ في السكون
وبي ما يدلّ على أنني قادم منْ بعيد
وما استدلّ به لأعود إلى حيث لاتعلمونْ
وبي فكرةٌ هائجةْ
****
حزين ومدثّر بالحنين
أحدّق في شمعة لا تضىء سوى ذاتها
وأشعر بالخوف مني ومما رسمتُ على الورقةْ
ومن ليل مارسَ أشعر بالخوفِ...
من ريحهِ الجامحةْ
تنوحُ كما لم تنحُ أبداً
وتدنو من الكوخ، تدنو من الروحِ،
تدنو من الجسد المستكينْ
أنا خائفٌ أيّها الليل لكن
قريباً يحلُّ الصباح القديم

وأرفضُ أن أتنازلَ عن فرصةِ النرجسةْ
وأرفض أن أتراجع عن فكرةٍ
قد تصير غداً صرخةً بائسة
وأرفض أن يتحسسنى الضوء بعد ظلامي هذا
وأن أتشرّد في ملكوتِ النهار
حزيناً ومتشحاً بالحنينْ
قريباً يحلّ الصباح القديم
وأخشى التورط في الدرس والمدرسة
وأخشى التورط في عشقِ تلميّذةٍ ناعسة
وأخشى التورط في أغنية
وأخشى الذي لن يكون
قريباً يحلُّ الصباح القديم
ولا فاعل الآن إلا أنا
بدمي وبخطّي الجميل
أذيل نصَّ الوصيّة باسمي
وأبرز للشجره
بجسمٍ ثقيل وحبلٍ متينْ
.....
....
....
ستبْحثُ سيجارتي عن يديَّ وعن رئتي
وتبحثُ تونسُ عن قسطها في الوصيّة
وتبحث روضةٌ عن حظّها في قطيع الذكور
وتَبحثُ عنّي أميّ وأغْنيتي والنديم
غداً يعثرون على جسدي يتدلى كما ثمرةً ناضجة
لقد حان وقت الأفولْ
وأحتاجُ كلَّ غيومي لكي لا أرى سحر هذا الغسقْ
وأحتاج كلَّ جنوني
لأربطَ أنشوطة الحبلِ حولَ العنقْ
وأحتاجُ كلَّ الذي كان.. أحتاجني لأكون
أهمُّ بأنشوطتي
فيراودني العشبُ عن جسدي
ويقولُ لي الحبلُ:
"أقطفْ من الغابِ أكثرَ من وردةٍ
وآتّخذني حزاماً لها"

أهمُّ بأنشوطتي
فترتجفُ الشجرةْ
وترفعُ أغصانها عاليا
ويهيب بي الطيرُ أن لا أطيرْ
لقد حان وقت الأفول
وإنّي حزين كما ينبغي لأطير
وأعلو على كلّ ما هو طين
وأعلو على الأغنيه

□□

خلق

شعر: عادل بوعفة

في الغبشة حين كان الخلق يشحذ آيات التكوين
كانت أول حاملة للروح
أول أسرار العشق الآتي
من زمن قبل التأويل
كان الكون يحبل بالطيف الأوّل
بالرّوح الأولى
وكنّا روحين اثنين في أصل التكوين؛
جئت من صخب اللحظة
من صوت
ترتيله ما فارق ذاكرتي
علّمني الأسماء
لون الشعر
وأوصاني
بالحجّ إليها..
كنتُ أجهل كيف تكون الرحلة
نحو المجهول
لكنّي كنتُ أعرف أنّي سوف ألقاها
أعرف أن عطرها
معراجي إليها
أعرف أن صوتها
فاتحتي
ولون الشعر..
دليلي إليها
في الليل
حيث تلد الفكرة من لهب الروّح
يحرسني حين أجعل في الدُرَّاق سكني
كان يدلّ خطاي
كنت أشكّل قافيتي ، من عينيها
القادمتين من زمن آتٍ– وكنت أرى
بعض ألوان القوس القزحي الراحل
منها وإليها في كل أنثى كنت أقترف.
يتشكّل بين يديك شؤبوب الصلصال
يتفتح زهر الروح
تفوح رائحة الزعتر والإكليل
هذا فضاء البوح السريّ
فترقب خلخلة الأشياء
إن الوعد الأبدي قريب

والجسد الفارغ أغنية العاجز لا الشعراء
هذا الشعر الغجري يهبّ
من مملكة كانت خيل العربِ
تعرف كل مساربها، تعرف ألوان الأزهار فيها،
وطعم العشب
وسقسقه الأطيار العاشقة للمطر البعثي
تعرف كيف يكون العشق أغنية
للروّح وأغنية البسطاءِ.
كانت خارطة الأسماء تأخذ شكل
عناصرها
الغيم الحانق كان يغطّي شكل الماء
ألوان العشب، ورائحة الزيتون
في الصحراء . حتى صوت الموجه
تلك الحاملة سوآت الروح ما كانت واضحة
كان الراعي يحمي قطيعهُ
بتمائم كان يصنعها
من لألأة بدر عرفته الجازية
العربية
كنت أخبئ صدفاً أعرف أنه آتٍ منك،
آتٍ من زمن اشتاق إليه، كان في لون عينيكِ
كنت أحرسه من ليل ما انفكّ يشحذ كلّ
مخالبه كي يعرف سِحركِ.
تعبتْ راحلتي ،وتعبتُ من حمل السرّ
كنتُ أعلّل ، يا هذا الراحل
سوف تصل.... حتماً تصل...
بوابات الشرق تطل ببخور العشق الصوفي
بالصندل يعبق من مبخرة فولاذية
كانت رائحة الموج تمتزج بعطر سنابل
مطمُورَة روما...
والرافض يوغرطة "كان يلوذ بالصحراء....
صوت مدينتها ... خلخال وثنيّ
يصل بين الأزمان
ألواح
الحكمة
يكتبها سحر العينين
وتعيد قداسة ولع المجنون.
تكتبها
بالعناب لترى المعنى ملتحفاً بحلاوتها
وترى الأشياء
دروباً
يأتيها الآس المسبيّ
كنت أخادع شرفات صامتة، كنت أحاور
وشما أزليّا أعرف أني كنت أحمله

منذ البدء ، لكن طريقي إليه مازالت
تبتعد... يحتفل بعبير الفلك.
استجدي البحر الوثني ، انفجرت
أسراري مطرا ينهمر من نجم اللحظة
كان ربيعياً
وتريّ المعنى والصلوات.
هذا الوشم ، سمته الروح مرفأ حرفي
المكتوب بخطّ سوريالي القسمات –كنت
أبحث عن ألوان ريشه في العتبات
أقترح أسماء وليد سوف يأتينا
حين نرسم رايتنا بجناح يستجلي أسرار
الكون ويدسّ الحزن في قبرٍ أبديّ
الآن يتشكلّ اسم غادة
تتمايل في بستان الروّح، أربيّها..
وأجعل كل النّحل يحمل عسل
الجنّة في أكواب البلوّر إليها...
تلك الروّح هي روحي تلك
الأسماء.... أوزّعها عليّ.
هل يأتي الليل القادم ، من عمق رؤاها مفتوناً
بين الخدش المائي
تعانقك البسمات
علّمني يا جسد الليل كيف يكونُ الليل غريباً
ويكون حنونْ
تستغفل تلك النجمة خطوتها لتظل عليها
علمني حدود سروٍ يحمل آيات حبيبي
شيعه النهر في زهر طفولتها...
ليجيء محراب الروّح الحامل عطر خطاها في السرّ
سأؤرّخ للقديسين
لحمام عبر البحر في سنوات
كي يبني عشّه بين القلب ولبّ القلب
بسمة أول آيات التنزيل
أشجار الكرم الوافد من جنّات الروح
عنب
حبق
نعناع
لون الفجر السحري حين يُطرّقُ في سلبي
حيث يأتيني العري أوضح من ماء الخلق
أصفى من بلور الصحراء
أعذب من خمر ابن الفارض
أصفى من صوت الفيروز
أجمل من أغنية الحلم
يخرج منّي الطفل مجنوناً، يبحث عن مجنونته
يسبح بين عطور الأزهار الباقية
شهد

عرس وثني أزرق
بساط لمساء أجمل من كل أماسي الشعراء
كانت في البدء التكوين
وكنت الكائن حيث أكون

وكنت الألف وهي الباء
يجمعنا القدر المسكون
بالباء البسمة والأسماء

□□

يصدر قريباً
عن منشورات اتحاد الكتاب العرب
أسفار ابن أيوب الحموي
شعر...
.......محمد عدنان قيطاز

عجوزان

زهرة العبيدي

خلفَ نافذةٍ
مرشومة
على جدار عتيق

قُبالة قمرٍ
يضيءُ الحكاية
مُذْ أوّلِ الطريقِ
أيُّهما يُحصي
تجاعيدَ الآخرَ

وصوراً
لأعياد مكدسّة
كبقايا حريق؟
أيّهما يحدّثُ الآخرَ
عن صّبيّةٍ
مِنْ خَجلها
وَضَعَتْ لعريسها مِلْحاً
في قهوته الأولى
وغفَتْ ببياضها
على العتبَهْ؟
مازال الطعمُ الغريبُ
في حلقهِ
مازال يقرُ صُها
صَقِيعُ العتَبه..

لوح قدري

علاّلة حواشي

طَيْرُ الرياحِ ، سَارقُ الألواَحِ،
في حوزَتِهِ مَصَائِرُ العبادِ والأربَابِ
في مُقلتِهِ السَّماءُ
طارَ بي فَشَارفْتُ حِمَى الخُلدِ ولَم أدْرِ
يَدايَ امْتَدّتَا تُطوِّقانِ الطيرَ
صدرُهُ تَداعَى فوقَ صَدْريْ
نَبْضُهُ سَرَى إلَى نَبْضي
وَتَحْتَنا تَراءى البحرُ مِثْلَ حفنةِ الّزجاجِ
تحتَ الشَّمسِ
والأرضُ بَدَتْ كالخَدْشِ
كُنتُ آمِنًاً
فَكَيْفَ عَنّ لي إذَنْ أن أقْرَأ الأسْرارَ
والأقْدارَ
في جَعبةِ طائر الريّاح؟
كيفَ لم أخفْ وخَلْفَنَا لُهَاثُ الآلِهَه؟
مَدَدْتُ كَفي كي أَرى في خِفيَةٍ ما قدري
هوَيْتُ وارْتَطمتُ في الصَّخرِ
كَمَا قَطعةُ طِين ناشفة
لا البَحُرُ وارى جسدي
لا الأرضُ قالت ولدِي
فَهَلْ يعودَ طائرُ الرّياحِ كَيْ يُحْرِقني
ثمّ يُذرّيني رَمَادّاً
فِي هِياجِ العاصِفَةْ؟!

مباهج القفصي

شعر: محمد بن صالح

مَبَاهِجُ القَفْصِي
مَصقولةٌ
منحوتةٌ
ذاتُ وجهين الحجارَةُ
أزاميلُ صغِيرة
شظايا
أسنةٌ ومُذّنباتْ
مكاشطُ جاءَتْ كأوراق الشَّجَرْ
مرايا الوافدينْ..
حجارةٌ قالتْ يسيراً مِنْ حكايَتِنَا
وتحت وجهْ الأرضَ خُبّئتِ البقايا
نحنُ مباحت به الأرضُ لنا بعد انْهِمارِ الطّمْي فوقَ عظامنا
أو ما تبوحُ به الرّبابةُ من وداعِ ا لرَّاحلينْ
قالتِ الأرضُ في البدء ماءٌ هارب ينسابُ فوق المُنْحنى
الشَّمسُ من قُرْبٍ تُعاتِبُهُ
والرّيحُ أبعدُ من وسطْ
مات عهدٌ من الجليد ومات آخرْ
نحن ماترك الجليدُ من حَرٍ تَخْفَّى داخل الجَسدِ المُفاخرْ
الرّيحُ أبعدُ من وسطْ
أبعدُ من حقّ يُناوِئُهُ الغَلَطْ
يَطّلعُ السَّمكُ الفِضّي غِرّا
يطلعُ من أعشاب قاع البحرِ أو يُقبِلُ مدفوعاً بماء النَّهْرِ
ويعودُ مخدوعاً بشمسٍ عكست ظلَّهُ نَمْراً فنجيئهُ
تحت إكليل من الرّيشِ في صمْتٍ ونقتلُهُ
السّمكُ الفِضّيُ للأطيار مابقيتْ شمْسٌ تضيءْ له العميقْ
ولنا الأطيارُ مادامتْ مياهُ النَّهْرِ ترحلُ قصدَ البحرِ سِرّاً
نحن مباحت به الأرض لنا بعْدَ انهمار الطَّمْي فوقَ عظامنا
أسنانُنا افتقدتْ قواطِعَها
جماجمُ قالت وجْهَنا الخَشِنَ وقالت سِحنَةً بهيميةً جدَّاً
جماجمُ قالتْ

أقمنَا المُخيّمَ حوْل العُيُونْ
تركنا الكُهوف وجئْنا المياهَ نُسَامِرُ دفءَ العُيُونْ
تبعْنا المَواشِي إلى حيْثُ جاءَتْ
حَمَلْنا بُيُوتَنا فوقَ الرُّؤُوسِ حصيراً
نرَتِبِّهُ في المساء ونجمعه للرَّحيلْ
رأيتُ الغزالَ يجوبُ السهُّول
تُسامِرُهُ الفِيَلهْ
رأيتُ العُجولَ إذا جاءَها النَّمْرُ أخْفَتْ قُرُونَها في الأكَمَه
رأيتُ النَّعامُ يُراقِصُهُ ظِلُّهُ في الصَّباحِ وظَبْياً
يعودُ به الكركدنُّ إلى معبدِ السَّاحِرهْ
إذا مسَنا جُوعُنا
ونادى أن انتشرُوا أو تموت النساءُ انتصرنا لضَعفِنَا حتّى نكونَ
وكُنَّا إذا عادنا خوفُنا
رسمْنا على الأرضِ وجهَ الفريسةِ ثمَّ رميناها في موقع القلبِ والخاصرهْ
إذا أصبنا الفَهْدَ في صُورتِهِ
ترنَّحَ من شديد الرُّعب والتَّعَبِ الغَريبِ
وبات أطوعَ من صغير الفَقَمَهْ
بقايا الحجارة قالتْ
وما ساءني الدُّهْرُ إلاّ هزيعاً
ولكن إساءتُه قاتِمَهْ
ليالٍ من الخوفِ طالتِ وأرهقتِ الأُذنَ والبَاصرَهْ

عواصِفُ جاءَتْ
برملٍ يصيرُ جبالاً
ويأتي فيهدمُ بيتاً وذاكرةً لا تموتُ وجاءتْ
بماءٍ رأتهُ الطُّيورُ فحطّت بجُحرِ الأفاعي ونامتْ
إذا أرْعَدَتْ
قُلْتُ أمُّك صاحتْ على طفلِها من مخالبِ نسرٍ
يخضّبِها دمهُ الطّاهرِ كُنَّا
إذا عادنَا خوفُنا
هربْنا إلى سفحِ رابيةٍ اشعلَتْ نارَها من لَمْعَتيْنِ تصادَمتَا في الخفاءِ طويلاً
وبتْنا نُغَنّي
نُرَدِّدُ ماتصرخُ النَّائحاتُ به سَجعاً ثم نبكي
فيخرجُ من بينِ أضلُعِنا طائرٌ
هائلٌ
نراهُ جناحينِ من ذهبٍ
كما لمعتانِ تصادمتا في الخفاءِ طويلاً
مصقولةٌ
منحوتةٌ
ذاتُ وجهين الحجارهْ
هضابٌ من رمادِ الأهلِ والحَلَزُونْ
شظايا
مرايا القادمينْ
أزاميلُ صغيرهْ
مكاشِطُ جاءت كأوراق الشَّجَرْ

أسنةً ومذَّنباتْ
حجارةٌ قالت يسيرا من حكايتَنَا وتحتَ وجهِ الأرضَ خُبِّئَتِ البقايا
غزالتان تعانقان زرافةً
بيضاءَ شاردةً وصيادٌ تَخَفَّى الجوعُ في أقواسهِ
محارٌ على الحائط يبقي السِّهامَ كما انْطَلَقَتْ في الفراغ المريعْ
يُسَطِّرُ دائرةً يعتريها السَّوادُ أطلّتْ
كمن خافَ من نبأ قد يجيءْ
ستخرجُ من عمقِها كي تضيعَ
سترقصُ رهطاً على نورِ مصباحكِ الحجَريّ
محار يلوّن بالخوف وجدك دائرةً في العماء فأين ستهربُ من وقع خلْخالٍ زوجتك الثَّامنه
وكيف ستخرج من عطرِ إسورَةٍ من عظَامْ
تعانِق زوجتكَ الثّامِنهْ
سترقُبُ جِسْمكَ يَضْمُرُ مثل الشحومِ تُضيءُ لك الرُّكنَ وهي تذوبُ
على خد مصباحك الحجريّ
سيُرْعبُكَ اللَّيْلُ يُخْفي النَّهارَ
ويخفيك عن ناظريك وتُخفِي المصابيحُ مافضحتْ من رسومِ الجدارِ فأين ستمضي شظايا
هضابٌ من رماد الأهْلِ والحَلَزُونْ
أسنَةٌ ومذنّباتْ

مرايا القادمينَ
خفايا الجبلْ
لم تشتهِ الإفلاتِ من دنياكِ مجروحاً بإصرار الأيل
لم ترتبكِ مما تضوّعُهُ الفلاهْ
نادتك من أفقٍ يسامِقُهُ الحُفاةُ ولم تزَلْ
في ليلكَ الدَّامسِ تنظر في المرايا
عليك إذنْ بافتعال التعقُّلِ كي لا تموتَ على ضَفَّةِ النَّهْر من عَطَشٍ البرق للظُّلْماتِ
وكي لا تموتَ
عليك بإعلان عصْيانكِ الفذ للرّيحِ مهما علَتْ أو تعالتْ
فحُرّا كما جئتَ تبقَى
وكي لاتموتَ
عليك بإشعال ناركِ من فائضِ الرُّوحِ لا من حَجَرْ
بقايا الحجارة قالَتْ
يجيءُ الصُّراخُ مديداً كقاماتِنَا
وأيضاً يجيءُ بدون قواطعَ
ولكنّ نجماً سيُعْلمُ نَهْراً بلا ضَفَّتينِ
بأنَّ اللواقِحَ جاءت مُحمّلةً بالعبير وأنَّ اللواقحَ سوف تُهاجرُ
ويتلوه آخرُ
يقول الذّئاب تراقب خِرفانَها من بعيدٍ
وحرّاً كما جئت أفْنيتَ دهراً ترتّب مابين نحْل

سعيداً بما جادَ من عسلٍ للغزاةْ
ونخلٍ سيُعْلم نهْراً بلا ضفْتينِ
بأنّ القوافلَ جاءت مُحمّلةً بالعبيدِ
تُدلّلُ لامّا
وتأمُرها أن تقود الكلام إلى آخر الرفض فيك وميماً تموء ستنهرها
فحراً كما جئتَ تُبدعُ رؤياك من عُنْفِ أيّامِك الكالحاتْ
تداعب مَعْنَاكَ في قلقٍ هائِلٍ
يَطُولُ فيُرْبكُ سمعكَ والبَاصِرهْ
ولكنْ تُروّضُهُ كي تجيء الدّلالاتُ من عمقِ أرضكَ
تجيء الدّلالاتُ صاغرةً
تصيرُ النّجومُ قوافلَ من فِضّةٍ
تنوءُ بما حملتْ من غبار الطريقْ
وتحني الرُّؤوس لمجدكَ
تصير الغمائمُ أشرعةً ضائعهْ
ويأتي المساءُ حزيناً كمن يحملُ الفاجِعَهْ
فتَعْلَمُ أنّ دوائركَ اكتَمَلَتْ منذ حينٍ
تُغالِبُ دمعكَ
ترتِّبُ أشلاءك الباقياتِ وراءَكَ
تنوح النّساءُ
تودّعُهُنَّ بأعذب ما تشتهيه النَّساءُ ويُقْبِلُ أصحابُك الرّائعون
رفاق على الدَّربْ والحَرْبِ يبكونُ من فرقةٍ موجعهْ
تهدَّئُ من روعِهمْ ماستطاعَتْ دُموعُك أن تتخَفَّى وراءَك
تُقَّبل زوجاتِك الباكياتِ وراءكَ
تُضمَّخُ بالزّيْتِ شعرَكَ من خالصِ الياسمينِ
تُحدِّدُ شبرين عند التقاء المياهْ
وكي تتخفّى من الوقت والنائحاتِ
تُمدِّدُ جسمَك تُغمِضُ عينيكَ تَمضي إلى سفرٍ قد يطولُ
وكي تتخفّى من الوقتِ والنائحاتِ
تُلوِّحُ للطّفل تحمله الزّوجةُ الثامنة
يصيرُ المرايا
ويكتبُ مجدَك فوق الحجارهْ

□□

اعترافات على قارعةِ الشمس

شعر: عادل الجريدي

مولاتي
امنحي الطينَ جناحينِ
ريحاً يُرحّلني إلى رحيلك
لأستريح في ظللك لحظتينِ
وأنحني بين ركبتيكِ
وأبكي طويلاً
من الوقت الذي
رافق نَعْيي
بعيداً عن خارطةِ وجهكِ
ثم أغفو على صدركِ قليلاً
لأستعيد ملامحي
وبقية اسمي من العراءِ
لأنتِ الأحكمُ والأبهى
منّي.. من حُلمي
ومن تفاصيل القصيدهْ
لا ملجأ منّي إلا إليكِ
ضُمِّيني إني أنتحرُ
سرقتني خُطى الخطايا
فاقترفتُ الموت

كان حلمي مجذوباً
للخاتم المسموم ممتلئاً بالوهم الكثيفِ
موسيقى نحيب المقبرهْ
تسحبني نحو أبوابها الخلفيهْ
....
نسيت توديع صِبَايَ
تجاعيدَ شقاوتي
فوقَ جبين أميّ
باعةَ الوردِ
قبالة المسرح البلديّ
جدي ابن خلدون
وحانات آخر السيلِ
ابتسامة المعجباتِ في خجلٍ...
مدرستي...
حجرة سقراط"
نبض الجامعة
نسيتُ...نسيتُ...نسيتُ
وامتطيتُ راحة الرحيلِ على عجلٍ
رسمتُ بألوانِ الغربةِ

مالا أريدُ
فتلقّاني الخريفُ بِعُريه على مهلٍ
كنتُ أسيرُ في جنازتي
وحيداً
مُحتمياً بسيجارتي
من وساوس القلبِ
ومن حسرةِ نفسي عليَّ
مردّداً أياتِ عشقي
من الأناشيدِ المدرسيهْ
فأصرخُ ملءَ هزيمتي
اصفحي عنّي مولاتي
بحقّ الحروف الأبجديهْ
أغيثيني.... أغيثيني...
بحق طنينك الذي سوّاني
بحق مائك الذي أحياني
بحق الشوق الذي أبكاني
أغيثيني ....أغيثيني...
أعترفُ الآن بصبوتي
اقطفي مِن تعبي بذرةَ عهدٍ
وارحمي دموع عينيَّ
بدونك العمر عهر
اغفري لي ذنوبي
لأبتدئ
من اسمك تمتمة العشّاقْ
من رائحةِ الياسمين
على ضفاف شفتيكِ
من تفتّح القرنفلِ
بين هضابِ نهديكِ
من طيفك الذي يتحدرجُ
من سماء الله شمساً تضئُ
من ابتدائكِ أبتدئ
*****
اعيدُوني إليها
لم يحنْ وقتُ الفطام
أعيدوني إليها
مازلتُ طفلاً
لا أقوى على الفطامِ
أعيدوني إليها
بتّ أخاف الليلَ
سريرُه تابوت
دون دفء عينيها
أعيدوني إليها
أعيدوني إلى ملحي وخبزي
أعيدوني إلى رائحة البنّ
فاتحة الصباح
أعيدوني إلى نخلي
ارتواءِ الصحراءِ بالصّبر
أعيدوني إلى مهدي
إلى وَكْرِي
لغتي
ولوني
صفوة الرُّوح على حافة النّبع

أعيدوني إلى رائحة جدي
فرحي وحزني
إلى الطرقِ التي تعرفني
أعيدوني إلى قمري

إلى بحري..مجلّي هميّ
أعيدوني إلى بلدي
أعيدوني إلى بلدي

❑❑

طقـــس الحمام

شعر : نور الدين الشمنقي

حين تنبجس شظايا السؤال مع عتمةِ الحلمِ
ويحملها صهيل الرُّوح في زمن الغروبِ
لينفتح الكلام على علاَّتِهِ
وأشكوه ذا الوجع الأخير
وأمضي..
في تفاصيلِ الحروفِ على أهازيج النّساءِ
إلى الغديرِ كي أملأ الفخّار
من ماء غسيلهنّ..
وبالجرح القديم يفيضُ ثمّ ينحدرُ ..

**

كم تُراني حالماً بفوضى الصباحاتِ
و"بالنشيد الخارجيّ"
لم نحبّ الصّرف في الكتبِ؟!
ولم نول النحوَ أمرَ حالتنا؟!
ولمَ الكلام المستعادُ ؟
ألكي يدثّرك السؤالُ أم جنونُ الأقنعة؟
أم هو الوجعُ الحنينُ في تلّةِ الوادي
على خدوشِ الماء في صَفْوِ الرمالِ

***

إليكَ نسغَ "سمارةٍ" بكرٍ تَرّوضُ الجرحَ الأخيرَ
وذري هشيمَ القش إلى خرافاتِ الحمامْ
ثم نامي على وجع الحريرْ
وارتوي من ندى الوقت إلى عصر الكلام
هي ذي فواصلنا ترقمّك : "فقرةً !!! فقرةً!!!
وتقولنافي بياضِ الوقتِ: جملةً!!! جملةً!!!
ثم نُمتحنُ بلاسبب....
"أيا امرأةَ العزيزِ ألهذا تأسرنا سريرتُكِ؟! "
ولِمَ جثيتِ على هاماتنا
وما جنينا على أحد
أَمِن شبح الحكاياتِ نصوغُ شكل دهشتنا؟!
كيف نسوّي الهيكل المخصيَّ فينا ؟
فأنيخي سرَّ هذا السحر على خطى السّحر القريب
وانفخيه في قاموسه
فيندهش الحمامُ

□□

العاشق المتجول

سوف عبيد

يا بائع الخبز
أشتهي رغيفاً وهاجاً
مثل وجنتيها
قال اذهب إلى بائع الورد!
*
يابائع الورد
أحب وردة درية
مثل عينيها
قال اذهب إلى بائع اللؤلو!
*
يابائع اللؤلؤ
هل لامست أصابع ندية ريانة
مثل كفيها ؟
قال اذهب إلى بائع الحرير !
*
يا بائع الحرير
هل مرت جنائن الياسمين
وحفيف ثوبها
على خصرها
في البحر أغرقني ؟
قال اذهب إلى بائع السمك !

*
يا بائع السمك
القلب في الشباك
الشباك على المركب
والمركب في الميناء
تحت الشمس
ذاب صبري ...
قال أسرع إلى بائع الثلج!
*
يابائع الثلج
أرأيت التي وعدها السّراب؟
قال تراءى في السباخ
وعليك ببائع الملح؟
*
وعندما وقفت
عند باب بائع الملح
وهبني جبتّين من الملح
مددت يدي
فذاب السكر
في الجرح!

الأهوال

شعر:نزار شقرون

تُفيضينَ عَلَى الكَوْنِ
جَرَسا خَفِتا للْخرابْ
تفيضينَ هَوْلاً
شَاهدتكِ جَزعاً
سَمعْتُ الَجَبَلَ يتَصدَّ عُ
وَصُراخا إلهياً في السّحابْ
شاهَدْتكِ
لمْ يكنْ وحيٌ بيْنَنَا
رأيتتي عينينِ منْ ذُهُولِ
وأفقا من عَذابْ

تفيضينَ
لا تُدثِريني
بل شاعريني صافية
إذْ لا ثوْبَ يَسَعُنَا
وَمَا أبْقَى الرّثاءُ على الجَسَدين
خُذيني
أصيُر تقيّ أنفاسكِ
إذْ لا صوتَ أبْدعنَا

وكانَ الخلقُ منْ حدّةِ الأنينْ
خُذيني
فلقد أرقتُ نشيجي
على شفتيكِ
أفلا تنطقِينْ؟!
هُوْ النّبيدُ المسائيُّ
أجهش في حلقك
فأبْتلتِ الروحُ
وأورقتْ لغةً
مِنْ سِرِّ العَاشِقينْ

تفيضينَ على الكوْنِ
فأصرخُ للحُزْنِ
ما خُلقْتُ مِنْ تُرَابُ!
منْ قلقٍ
انْبلجَ عُمري عاصفاً
منْ عِشقٍ
لما يبزغُ عندَ الحدادْ

بهجة الغائب
وقطراتُ ألمكِ العذابْ
تفيضينَ ولا تتعبينْ
تكونين بعيدة منفى
وقريبة منفي
وكلما جردْتُ الحياةَ منْ أحداقِهَا
حَدستُكِ في بُرْنُسي القديمْ

أُرْهِقُكِ أَكْثَرَ
منْ دُموعِ الجّداولِ
أتطهرُ بليلك الباكي
وأقمرُ
في مشهد وجهكِ الحزينْ
هلْ لي
أتراحٌ نامية في تُربةِ
وجهي؟
هل لي سوسنُ الفرحِ المُدلج
في الغيابْ؟
شاهقةٌ أسمالُ وحشتي
قذفتُ وحدتي عميقاً
في راحتيكِ
فكانتْ حبراً على لوحِ
من سوادْ
قذفتُ ألقى
أتهجّى ما تجلّى في السّحابْ
ضميني نسغاً
ليرجعَ قلبي إلى شذاهْ

ويشرعَ الصباحُ
في خطاهْ
وَتَسجدُ التراتيلُ
للأغنياتْ

ألستُ بريئاً؟!
لمحتُ دمي بعيداً
فخشيتُ
لمحتُ منْ شردتهُ
فغشيتُ
لمحتك تنفثينَ صهيلهُ
فأتقدتُ في جِراح الأمنياتْ

هُزّيني
أعصفُ برموشِ
أجداث الأولياءْ
لأُسرجَ عيني
وأذُوبَ في آهَاتكِ
كهفٌ للغرباءْ
الغريبُ
نسيتُ من جهات الريح
أتيتُ
هتفتِ بي مشرقاومغربا
ورأيتُ
صُورتي أعْذَبَ في الماءْ
الرّيحُ صارتْ أجهرَ
الرّيحُ هيّجتني
وأعتق أقدامي النّداءْ

□□
القصيد

شعر: شمس الدّين العوني

أقول ماتقوله الأشياء
أو مايقال – فيمابين العاشقين–
في ليل الشتاء النّحيل
كبرنا وهذي المدينة واو الحكاية
إذ أرغمتنا على حبّها
وأسقطت في شفاه النبيذ خطانا
أقول وكأنّني الورد في الشّرفات
خجلاً إذ يسرق الانتظار ... من العابرين
أو كطفل حالم
باللّهاث
خلف الصّدى المجتمع
يحنو على لعبة متناثرة
أقول وأسمع في القلب
نبض غبارهم
ووقع العالم في خطاهم
أقول وقد مضى الحزن
وآن للقمر أن يلمس البحر
ساعة من نهار
أقول

أنت أيتها المتدلّية من الوقت
كعنقود ثواني
ماذا أفعل كي تألفين المشهد
أوتأتين كالسّحر
هل أقصّ شفتين من الأقحوان
أو أبادر بالفيء كي أجمع أثقالك
أو – أكثر – ألامس تمثال عمرك
ثمّ ماذا ؟
إذا كان بوسعك أن تطيري فتصيري
مفاتيح يديك
هل أقتفي صوتك / صوبك
أنت أيتها الذّاهبة إلى النّسيان
ماذا أقول
وأنا كالضوء
إذ ينحني عميقاً أو يحتمي بالفوانيس
أسطّر توهجّك كي تتطاحن الأزهار
بلا مشكلة
وأعاتب الورد على هفوته
ماذا ..

أيتها المتدّلية بلا غصن
هل أناديك
أم أنادي المدى أن تمهّل
أم أقول لسيّد المسافات
أم لمن أسرجت حبّي لأسمائها
عشية النّعناع فاجأها المساء في فنجان شاي
ودعتني إلى عرشها وردة..
أنت أيتها المتدليّة
كاللّغة كالفراغات إذ تمتلئ بالشّهوات
وتهمس
أنت أيتها العائدة إلى النّسيان
مزّقني الحبّ والخجلْ وشكل التّرف
وأنا أردّ المساء من شماله إلى يائه
أو إلى جهة في الياسمين
أستعذب العمر مابين سنبلتين
أتهجّى الينابيع و أرتدي موجة من رمال الجنوب
أيكفي صباح كي أنتظر
في هدأة الأسئلة
وهذه الكأس فارغة من غبار الانتظار
أنت أيتها المتدلّية كالفصول
سهرت حتى سهرت
وهذا هواء المدينة يراقص لحم الصّباح
وأنت
من أنت
ماعدت
ومالنت
أيتها المتدلية
إلى الفوق..
نسينا الماء
نسينا الشمس في غبار الحكاية..
فهل ننساك
وأنت ستعودين وستولدين من النّسيان
ونعرف أنّ نيسان صعبْ
ماذ أقول؟
مزّقني الحبّ والتّرف وشكل الخجل
وصرت كشهقة الأزرق في سراب اللغات
حسناً..
دافئ كليالي الشتاء
عند السّطور
أراوح بين معنى ومعنى
ألهو بتفاصيل الحروف
وأحاصر الأشياء إذا أفلتت
أو تلاشت
دافئ كليالي الشّتاء
وكعشب الشتاء
سأشرب من قاعها حتّى إذا
قالت الأشياء
فصولها
كنت أنا قصيدها

شجر يحاول أنْ يرى

شعر: عبد الستار العبر وقي

شجر يحاول أن يرى
مطر يسافر في أهازيج القصبْ
والوقت ظلّ جامحٌ
لمْ أجتب الشمسَ التي وزعتها
من جمرة الأيام أو همس الحجرْ
سفر أنا
أعدو إلى حيثَ البلاد تشدّني
وزوارقي البيضاءَ أجنحتي
لمّا تزل منذ اندلاع الريحِ
تجترح الضياءْ
وتجوبُ أحلام البيادر والمرافقِ
والشجرْ

***

هل أكتفي بالبوحْ برقاً يَقْتَاتُ مِنْ ماءِ الكبدْ
أم أقتفي ألقَ الصدى
انسى الشواطئ ، أمحي
قبلَ اشتعال المدّ في نبضِ البلدْ
قال الندامى
عندما التمع النبيذَ ، لمَ الضجرْ
فالبحر يحترفَ السذاجة والمدينة، لا ترىَ
من أينْ يبتدئ السفرُ
فاشرب إذنْ ودع العواصفَ، للمدى
تجلو الرواسبَ ، رُبما تنموُ على كتفِ القواقعِ.
بعض أحلام البشرْ

***

(جُودو) العلامةُ ما أتى
(جُودو) الخرافة إنتهى
(جودو) تمذر والمحطّاتُ اختفتْ
هَلْ ، مَنْ ولمّا ، لمْ تعدْ تكفي ، لنخرجَ
مِن سرادِيب التبعثر، والأَنا
هل نكتفي بالعشب
والأوراق ...هل
أبدا أبي ما كان يوما فاتراً
أفقُ النوارس وجهتي
لا مال لي، لا خيل ، لا ألواح

ترفع قامتي
وتر أنا ، وترٌ فقطْ
زادي احتدامي بالنّوى
وأصابعي ، هذي التي
رسمت دمي، شجراً يرى
ومواقداً زرقاء في لحم الضّجرْ
سفر يؤجّج مهجتي
مطر يؤجّلُ رحلتي
(تانيت) قالت عندما انخذل الفراتُ
دمي منارة من بكى
نبضي التجدد والمدى
ويحاً لمن خذل الأخوّة ،أو جفا
نخلَ البلدْ
غضبي انشطارُ الليل أغصانُ الردّى
نسغي، نبيذ العاشقين، إذا اهتدوا
ويدي ، جناح للذّي ، يهوى السّفر

***

شجر يحاول أن يرى
مطر يسافر في شرايين الدّجى
يا أيّها البحر الذي ، عشق التسكع والغنا
وملاحم رفعت أُليس إلى الضيّاءْ
هل أنّ تونس وردتي
وسفينة البدء الذي، لولاه
ما اشتعل الزّمان قصائداً
أم انتّي وجبيبتي الشّقراءَ
ننأى قصة حمراء في
همسِ المطرْ

❒❒

الموعدُ ذابتْ شمعتهُ

شعر : محمد الصغير

يا نبضَ يراعي يا تعبِي — يا غُربةَ شوق مُلتهبِ
يا نارا تحر ق موْقدَها — يا دَمْعة قلب مُضطربِ
نبضاً أوْدَعْتهُ عاطفةً — عَهْدا لنْ ينسى من حُقبي
ولكمْ فجرّتُ بشاشته — في جوّ شتاء مُنتحبِ
ولهاً خضّبتُ أصابعه — كعروس تخْطِر في عجبِ
وهوىً رَوّيتُ مغارسه — بعُصارة حبّ لمْ يَتُبِ
ما زلتُ بشوق آذكره — يحْيا في النفس بلا حُجبِ
ونسجتُ ضياءه ملحمة — زُفّتْ بالروعة والطربِ
ونسيتُ لياليَ من آلمي — وضياعَ شباب مُغتربِ
ورسمتُ دلاله أغنية — غاب العُزافُ ولم تَغبِ
وصهرته حرْفا ملتهباً — رسْماً زخرفتُ به كتبي
ووهبتُ حياتي مطلعهُ — فجرا قدْ شعَّ بلا سُحُبِ

***

يا نبْض يراعي يا آلمي — مِن آجْلِك تهْتُ ولم آنمِ
صورتُ وفاءك عازفةً — لمْ يُرْسمْ مثلها من قدمِ
تبدو الأشعارُ بمعزفها — نغما للوجد على نغمِ
حلو النّبرات تماوجهُ — فنٌ قد رُش على قممِ
لكنْ ما بالي آنكرهُ؟ — والزائرُ يسعى في حرم
آنكرتُ مضارِب خيمتهِ — وشحيحَ سهوله والنعمِ

أنكرتُ نُضوب وسامته وشحوبَ دلاله من سقم
الموْعدُ ذابتْ شمعتهُ وبغيْر الظلمةِ لمْ يهمِ
لم تبقَ بثغره بسْمتُه والناظرُ أعشى من ورمِ
قد كان فتّياً ، لفتتهُ كالفجر تراءى في ظلمِ
يا ليتَ زماني يُنْقذهُ في عهْد صباه من الهرم
وأنا السّهرانُ يؤانسني ويفكّ يديَّ مِن النّدمِ

❐❐

قصائد من ذاكرة النسيان

شعر : سويلمي بوجمعة

الشاعر
قال للنهر توقف
وانحنى يلهب جمراً في حصاه
شق في الأرض طريقاً من دخان
ومضى .. يبحث فيها عن سواه
لم يجد غيره في كل زمان
فأتى يطرق بابي
كنت مفقوداً... فلم ألمح قفاه..
وهو يرتد وئيداً في مداه
شقه البرق فما سالت دماه
ومضى بعده الآتي مضى
أنه الآن وحيد في سماه
يتأمل
آخر البدايات
مرت سنتان على موتي
لكني... أحياناً
أتذكر أني ..
أحببتُ امرأة
أخذتني .... من وقتي
ملأتني..
فإذا بي ... حين أفتش عنها
تخرج لي... من صوتي
مرت سنتان على موتي
وأنا موؤود في صمتي
أترقب أن... تأتي
أتذكر أحياناً ... عينيها
وأصابعها ... وبياض يديها
أتذكر أيضاً... خط النار
على شفتيها
أتحسس في ظلمات القبر عظامي
لم يبق سوى آثار ملامسها فوق عظامي
وأنا ... من يذكرني الآن
مرَّ الأبطال الفقراء
ومر الشعراء
ومر الأطفال الشهداء
بلا أكفان
مرت عربات النسيان
تتماوج فيها أطياف نساء

كن حبيباتي.. أو كن رماد حياتي
آخر الأسئلة
الليلة ... حين أعود إلى بيتي
لأواجه ذاتي.. في غرفة موتي
سأقلّب أوراقي
وسأبحث عنك طويلاً
خلف غبار الصمت
وخلف رماد الكلمات
سأفتش بين رسائلك الأولى
عن آخر عهد لي .. بحياتي
وأعيد قراءة خاتمة الوقت
كي أعرف
أيتها الأنثى ... من أنتِ
شظاياي
لأني تخليت عني
خسرت الذي كان مني
ولم ألق بعدي سواي
رفيقاً شقياً... يلائم حزني
لأني ... تكاثرت قبل الأوان انقرضت
تشظى الأنا... في الذي ليس مني
وحين اعترضت على...
تشيأت في الكل... بيني... وبيني
لأني اختلفت كثيراً معي...
ومنذ كنت.. ومنذ انتهيت..
ومنذ .. ومنذ..
ومنذ انقلبت التي
فهمت بأني إذا مت بعدي
سأبعث حياً

□□

عالــم القصة

مدخل للكتابة القصّصية في تونس

د.محمد الباردي

1- لم تكن الكتابة القصصية الحديثة في تونس حديثة العهد ، بل تمتد جذورها إلى بداية هذا القرن وهي بذلك تنخرط في المسار التاريخي العام الذي مرت به التجربة الإبداعية السردية المعاصرة عند العرب . فمنذ العشريّة الأولى من هذا القرن نشر محمد صالح السويسي نصه القصصي الأول على أعمدة الصحف السيارة شأنه في ذلك شأن كتّاب روايات البدايات في المشرق العربي من أمثال جرجي زيدان وأنطوان فرح ونيقولا حداد وسليم البستاني ، وهي روايات ارتبطت نشأتها بتطور الصحافة وازدهارها .

ولذلك يميل بعض التونسيين من المهتمين بفن القصّ إلى اعتبار " الهيفاء وسراج الليل " التي صدرت سنة 1906 النص التأسيسي الأول رغم وقوعه فيما وقعت فيه روايات البدايات عند العرب من خروج عن الأهداف الفنية للكتابة القصصيّة ، إذ تميّز الخطاب القصصي في هذه المرحلة بنزعة أخلاقية إصلاحية ، إذ تغلّب الوعي الاجتماعي بضرورة الاستفادة من بعض أشكال الأدب لمواصلة الرسالة الاجتماعية المتمثلة في الإصلاح والدعوة إلى التنوير ، على الوعي الفني بالمقومات الأساسية للنص القصصي ولذلك غيّر بعض النقاد نقطة الارتكاز هذه ليعتبروا كاتباً مارس الصحافة وكان أحد أبرز جماعة " تحت السور " وهو علي الدوعاجي ، أبا القصة التونسية المعاصرة وهو في الحقيقة لم تصدر له إلا مجموعة قصصية واحدة نشرت بعد وفاته بعنوان " سهرْت منه الليالي " ومجموعة من الخواطر والانطباعات أقرب إلى أدب الرحلات بعنوان " جولة في حانات البحر المتوسط " ، وأقاصيص الدوّعاجي رغم أن أكثرها أميل إلى الخواطر الحرة وبعضها القليل استجاب لمقتضيات الكتابة الفنية في القصة القصيرة فإنها امتازت بتصويرها للبيئة التونسية في الثلاثينات من هذا القرن ومنحتْها قدرة الكاتب على التصوير بعداً نقدياً يتسم بضرب من السخرية المستحبة مما جعل هذه النصوص المحدودة محل عناية فائقة لدى الباحثين في الجامعة خصوصاً في السبعينات من هذا القرن إضافة إلى السلوك الوجودي الذي عرف به الكاتب والذي يبدو للقارئ من خلال بعض الأفعال التي تمارسها بعض شخصياته المتميزة ، ومهما كانت قيمة النصوص القصصية التي ألّفها جيل كتّاب ما بين الحربين وخاصة أولئك الذين جمعهم مقهى " تحت السور" من أمثال " كرباكة " و " العريبي " ، فإن تأثيرها في الأجيال اللاحقة ظل محدوداً ،

وذلك أنّ ملامح الكتابة القصصية في القصة القصيرة والرواية ، لم تتبلور بصفة جليّة وواضحة إلا مع كاتبين تركا بصماتهما على الساحة الأدبية التونسية ، وأثّرا تأثيراً عميقاً في الأجيال اللاحقة ، هما " البشير خريف " ومحمود المسعدي " فلقد أرسى الأول نهج الكتابة الواقعية من خلال أقاصيصه ورواياته : فلئن كانت " برق الليل " رواية تاريخية تشخّص بعض مظاهر الحياة في تونس في القرن السادس عشر ، تجسّد بداية تمرس البشير خريف بالكتابة ، فإن " حبّك درباني " والدفلة في عراجينها" تؤكدان أننا إزاء كاتب ماهر يمتلك قدرة فائقة على تشخيص الواقع التونسي ودراية واسعة بأساليب القص ، أما محمود المسعدي الذي انخرط مبكّراً في الحياة الثقافية من خلال دوره في مجلة " المباحث " فقد كان كاتباً مقلّاً ولكنه رغم " فلسفته " الوجودية التي بهر بها التونسيين وطفحت بها كتاباته جميعاً بدون استثناء ، فإنه انخرط مبكّراً في تيار التجريب اللغوي ، وأنتج نصوصاً خرج بها عن السائد في الكتابة القصصية العربية ، ولئن كان كتاب السدّ (1949) مسرحية ذهنية غير عادية ، توغل في الرمز وتراوح بين الحوار المسرحي

والسرد ، الذي يحتل حيّزاً كبيراً فإن كتابه " حدث أبو هريرة قال " وبعض نصوصه السردية القصيرة الأخرى ، تعد مثالاً بليغاً على الإمكانيات الغزيرة التي يتيحها استلهام التراث العربي الإسلامي على مستوى الاستعمالات اللغوية وعلى مستوى الآليات السردية والحكائية . بيد أن كتاب " حدث أبو هريرة قال " لم ينشر مستقلاً إلا مؤخراً (1979) ولذلك ظل تأثيره محدوداً ولاسيما في جيل كتاب الستينات العرب ، على الرّغم من أن أغلب فصوله كانت قد نشرت في مجلة " المباحث " في الأربعينات من هذا القرن ، وقد ساعدت المؤسسة السياسية في مستوى برامج التعليم الرسمي على نشر هذا الأسلوب في الكتابة مما جعلنا نلاحظ في السنوات الأخيرة تأثيراته الواضحة على جيل جديد من الكتاب كان في الأصل قد تتلمذ في المدرسة الثانوية على نصوص محمود المسعدي .

1-4 – بيد أنّ نهجاً ثالثاً في الكتابة القصصية احتضنه نادي القصة " أبو القاسم الشابي" الذي أنشأه الشيخ محمد العروسي المطوي ، وعنه صدرت المجلة الأدبية المختصة " قصص " وفيها نشرت أعمال أعضاء هذا النادي الذين بدأوا يتزايدون منذ نهاية الستينات ، والحقيقة أنّ نادي القصة لايعدو أن يكون مجرد تجمع لكتاب القصة القصيرة ومع ذلك فإن أغلب النصوص التي أصدرها هؤلاء الكتاب من أمثال عز الدين المدني ومحمود التونسي وأحمد ممّو ورضوان الكوني وسمير العيادي اتسّمت بنزعة تجريبية واضحة تجلت أبعادها النظرية في الكتاب الذي أصدره عز الدين المدني مع نهاية الستينات والموسوم بالأدب التجريبي ، بيد أنّ هذه التجمع الأدبي تقلص دوره في السنوات الأخيرة مع اختفاء مجلة قصص وإيغال صاحبها في شيخوخته .

2– ثمة إذن حركة أدبية تتّسع اتّساعاً مطرداً فنتج عن ذلك أن نشأت مدونة قصصيّة وروائية يصعب حصرها حصراً دقيقاً ونهائياً لابسب تعدد دور النشر وإنما بسبب مجازفة العديد من الكتّاب بالإقدام على نشر مؤلفاتهم القصصية أو الروائية على حسابهم الخاص ، رغم الصعوبات الجمة التي تعترض طريقهم إذ لا تجد النصوص الكثيرة مسالك التوزيع الطبيعية فتتعثر بذلك

علاقتها بالقارئ العادي والمختص في نفس الوقت ، ولذلك تظل أية محاولة لتصنيف هذه المدوّنة وتحديد مختلف الاتجاهات التي تدرج في إطارها محاولة نسبية ومحدودة ومع ذلك يمكن لنا أن نتحدث عن أبرز الاتجاهات العامة التي في إطارها ندرج أشهر النصوص قراءة ورواجاً .

2– ثمة اتجّاهان عامّان يتنازعان الكتابة القصصية في تُونس: اتجّاه واقعي واتجّاه تجريبي .

1-2 - الاتجاه الواقعي :

يحوي هذا الاتجاه جل أشكال الواقعية ولكنه مع ذلك اتجّاه يقرّ بمبدأين أساسيين يتمثل المبدأ الأول في أنّ الواقع التونسي ثريّ وهو قابل للتمثيل والتشخيص ثم أن أسلوب التشخيص يختلف من كاتب إلى آخر أو من تيار إلى آخر داخل الواقعية ، أما المبدأ الثانّي فهو الاقتناع بضرورة احترام القواعد العامة للكتابة القصصية ، سواءٌ أكانت قصة قصيرة أو رواية ، فالحكاية مقدسة والحبكة ضرورية والشخصيات تحافظ على سماتها الرئيسية وعلى أبعادها الاجتماعية والنفسية المختلفة وللمكان والزمان تأثيرهُما المباشر في تطور الحبكة إلى غير ذلك من آليات الحكي المعروفة في القصة الكلاسيكية ، وكل محاولة للتجديد والتطوير تكون دائماً في إطار احترام هذه القواعد العامة ، انطلاقاً من هذين المبدأين يمكن أن نتلمس مجموعة من التيارات التي تحتضنها الواقعية وهي تيارات تبيح لنا بتصنيف أبرز نصوص المدوّنة القصصية التونسية .

1-1-2- الواقعية التسجيلية :

يطمح هذا التيار في الكتابة القصصية والروائية إلى أن يكون وفيا للواقع التونسي . إن تشخيص الواقع ليس

مجرد لعبة فنية يلعب فيها الخيال دوراً رئيسياً بل يسعى إلى تحويل النص الأدبي إلى ما يشبه الوثيقة الاجتماعية أو التاريخية ، فهناك عادات وتقاليد يحرص الكتّاب على توثيقها وخاصّة في السنوات الأولى من الاستقلال والانخراط في مشروع تحديث المجتمع وأساليب حياته فكأن القاص التونسي يخشى أن تنْمَحي صورة لتونس القديمة عزيزة عليه فجاء القص لإعادة بناء الذاكرة الجماعية ومساعدتها على التمسك بعاداتها وتقاليدها ، ولئن تغلغل هذا التيار في القّصة من خلال كل المجموعات القصصيّة التي نشرها محمد الخموسي الحناشي وهو أحد كتّاب مجلة " قصص " المعروفين ، ونشرها حسن نصر إذ اعتنت هذه القصص بتصوير عادات الزواج والمناسبات الشعبية وتصوير مظاهر الحياة في المدينة والريف فإنه قد يتجلى بصفة أوضح في الكتابة الروائية ، إذ جاءت الروايات الأولى التي كتبها محمد العروسي المطوي (حليمة – التوّت المر) ومحمد المختار جنّات في ثلاثيته الروّائية لتؤرخ لأبرز الأحداث الوطنية التي عاشها الشعب التونسي في مرحلة التحرر الوطني ، وقد تمادى هذا التيار في الأعمال الأولى التي أصدرها محمد صالح الجابري (يوم من أيّام زمرا) وعمر بن سالم (واحة بلا ظل) فقد كانت الحركة النقابية وأوضاع العمال في منطقة المناجم بالجنوب التونسي موضوعاً رئيسياً في رواية محمد صالح الجابري الأولى وقد عاد إليه بعيد صدور هذه الرواية البشير خريف في روايته الشهيرة " الدقلة في عراجينها " إذ عمد إلى وصف حياة العمال في منطقة المناجم وتحركات العمال التونسيين أثناء نضالهم النقابي من أجل تأسيس منظمتهم الشغيلة كما كانت أوضاع الفلاحين وفشل حركة الإصلاح الفلاحي التي أقدمت عليها الدولة في نهاية الستينات موضوعاً رئيسياً في رواية " واحة بلا ظل " لعمر بن سالم .

وقد اتسم هذا التيار بنزعة تقليدية واضحة على مستوى آليات القص عامة ، إذ لم يكن يطرح على نفسه قضايا الشكل الفني وتجاوز الحبكة التقليدية أو تأصيل الكتابة القصصية عموماً ، بقدر ما كان ينزع إلى المحافظة على ما ساد من أشكال فنية ، ولذلك لم تقدم لنا الواقعية التسجيلية أشكالاً أدبية متطورة والنصوص التي أشرنا إليها لا تذكر إلا على أساس أنها نصوص وفيّة للواقع التونسي دون أن تعبر عن حيرة المبدع التونسي تجاه إشكاليات الكتابة القصصية الروائية بصفة عامة .

2-1-2 - الواقعية النقدية والواقعية الجديدة :

بيد أن هذا التيّار سرعان ما تقلص حضوره بحكم تطور الكتابة القصصية في تونس ، وتقلّص عقلية المبدع الذي يريد أن يؤدي دور المؤرخ أو يشكّك في الرواية الرسمية للأحداث التاريخية والاجتماعية ، فظهر تيار جديد بلور شخصية قصصية وروائية جديدة ، فقدت وفاقها الاجتماعي وتصالحها مع الواقع إذ وجدت نفسها أمام تناقضات الواقع وهي تسعى إلى فهمه وتحليله ونقده ، ولعل أبرز من يمثل هذا التيار القصاص والروائي حسن نصر في أقاصيصه وخاصة في روايتيه " دهاليز الليل " و " دار الباشا " ، ففي الرواية الأولى يصف السّارد وضع مثقف في بيئة ريفية في مجابهة مجموعة من التناقضات الاجتماعية ، وفي الرواية الثانية التي تبدو لنا أقرب إلى رواية السيرة الذاتية يراجع البطل حياته ليجد نفسه في مواجهة الزمان والمكان اللذين يخضعان إلى تغيّرات كثيرة فلا يستطيع فهمهما . كما تعد أعمال محمود طرشونة سواء كانت القصصية (نوافذ الزمن) أو الروائية (دنيا – المعجزة) خير من يجسد هذه الواقعية الجديدة في تونس ففي "دنيا " سعى المؤلف إلى فضح الواقع الاجتماعي من خلال العلاقة المتوتّرة بين رأس المال الجديد وعمال البناء ، ومن خلال حكاية شبه بوليسية لشاب يسعى إلى كشف الحقيقة والثأر لأبيه الذي قتل في حضيرة بناء . وفي " المعجزة " يقدّس المؤلف قيمة الحب من خلال علاقة عجيبة بين رجل وامرأة ، وقد ظهرت في السنوات الأخيرة روايات تنحو المنحى ذاته وأهمها رواية " رأس الدرب " لرضوان الكوني ، ففيها يتعرض الكاتب إلى نقد الأوضاع الاجتماعية في بعض قرى الجنوب التونسي ، من خلال تحليل شخصية أحد النازحين إلى العاصمة يعود إلى أسرته ، ومن خلال رحلة العودة يصف السّارد حياته العائلية والإطار الاجتماعي المحيط بها ناقداً حينا ومحتجّا

حيناً آخر .

2-1-3- الواقعية الاشتراكية :

قليلة هي النصوص القصصية التي تنتمي إلى هذا التيّار ، فلئن كان عمر بن سالم قد تعرّض إلى أوضاع الفلاحين وأوضاع العمّال في بعض أعماله الروائية ، فإن شخصيته الروائية لا علاقة لها بالبطل الواقعي الاشتراكي ، إذ هيمن لاشك النقد في هذه الأعمال ولكن التحليل الإيديولوجي لايبدو واضحاً ، ولابد من ثلاثة شروط لتحقيق الواقعية الاشتراكية ، وهي نقد الواقع والتحليل الايديولوجي لفهم هذا الواقع والتبشير بالمستقبل ، وهذه الشروط لا تتوفر مجتمعة في روايات عمر بن سالم ولعلّ أفضل مايمثل هذا التيار في الرواية التونسية رواية " قمح افريقا" لمحمد الباردي . فقد سبق لهذا الكاتب أن ألف روايتين (الملاح والسفينة / مدينة الشموس الدافئة) تبدو فيهما ملامح هذا الاتجاه ، لكن النص الأخير بلور بطلاً روائياً جديداً ، وهو حمدي رجب ، هذا المثقف الذي ترعرع في أحضان الجامعة وأفكارها الاشتراكية ، وبها حاول أن يجابه الواقع ولما خرج من السجن وجد أبواب الواقع مقفلة فالتجأ إلى عملية نقد الذات راجع فيها تاريخ حياته ومواقفه السابقة من خلال أمّهات الأحداث التي عاشها المجتمع التونسي في السبعينات .

2-2- الاتجاه التجريبي :

يحلو لبعض النقاد أن يقول إن الكتابة القصصية في تونس ، هي في الأصل كتابة تجريبية ، لكنها كتابة وسمت في البداية القصة القصيرة ، إذ ساهم نادي القصة أبو القاسم الشابي في نهاية الستينات وبداية السبعينات ، في رسم ملامح هذا الاتجاه والتنظير ، له لكنه لم يتجسّد في الرواية إلا في الثمانينات من هذا القرن ، من خلال أعمال جيل جديد من كتّاب عايش تجلياته في القصة القصيرة واطلع بحكم ثقافته الحديثة على أبرز النصوص التجريبية التي صدرت في فرنسا في الخمسينات ومنتصف الستينات .

2-2-1 - القصة القصيرة والتجريب :

إن مايميز هذا الاتجاه في القصة القصيرة ، هو كسر النّمط الذي يحافظ على المقوّمات الأساسية التي تنبني عليها الحبكة التقليدية ، فقد أوغل الكتّاب في التجديد والبحث عن أشكال جديدة غير متشابهة ، وقد تميزت أقاصيص عز الدين المدني منذ بداية تجربته في الكتابة بالنزوع نحو التجريب ، فمجموعته المعروفة " خرافات " عادت إلى التراث السردي العربي من خلال حكايات ألف ليلية وليلة لتقتبس أسلوباً في الحكي جديداً ، ولكنه اتّسم بنزعة واضحة نحو تحطيم الحبكة التقليدية في القصة القصيرة وتجاوز الصورة التقليدية للشخصية القصصية لتمنح القصة السارد دوراً بارزاً ورئيسياً في صناعة الأحداث ، على غرار الرّاوي في القصص الشعبية . هكذا استفادت قصص عز الدين المدني في " خرافات " من الحكايات الشعبية لتكسر النمطية التي طبعت القصة السائدة وقد سار في هذا الاتجاه كتّاب عديدون مثل محمود التونسي ورضوان الكوني

(الكراسي المقلوبة) لكن يظل طبيب الأسنان محمود بلعيد أبرز قصاص تجريبي من خلال مجموعاته الكثيرة التي أصدرها إلى حدّ الآن ، ولعل أهمها مجموعة " القطّ جوهر" ففي إحدى قصصها التي تحمل نفس العنوان يحوّل محمود بلعيد قطّه جوهر إلى سارد من الطراز الرفيع دون أن يحوّل قصته إلى قصص الحيوانات المعروفة لدى بعض الكتّاب إذ يصور محمود بلعيد العالم الذي تعيش فيه عائلة برجوازية من خلال عين قطّ، وعلى هذا النحو يمضي محمود بلعيد في جل قصصه إذ حطّم مفهوم الحبكة وركزّ على الوصف باعتباره تقنية رئيسية في بناء القصة القصيرة الحديثة . ومن الجيل الجديد يمكن أن نشير إلى الكاتب الصحفي حسن بن عثمان الذي أصدر إلى حد الآن مجموعتين تظل

مجموعة " عباس يفقد الصواب " قطب الرحى في أعماله القصصية نظراً إلى الأسلوب المتميز الذي صاغ به هذا الكتاب أقاصيصه ، فإضافة إلى تحطيم المكونات التقليدية للقصة القصيرة السائدة اتسم أسلوب حسن بن عثمان بضرب من السخرية يذكر بكتابات علي الدوعاجي في الثلاثينات من هذا القرن .

فكل أقاصيص المجموعتين بطلها شخصية واحدة هي عباس ومع " عباس " يوجد سارد يهيمن على الأحداث يصور العالم كما يراه ، ولذلك دنت جل هذه الأقاصيص من اللوحات الكريكاتورية الساخرة .

2-2-2- الرواية التجريبية :

تعد رواية " حدث أبو هريرة قال " لمحمود المسعدي الرواية التجريبية الأولى في الأدب التونسي الحديث ، لكنها صدرت متأخرة على الرغم من أن أغلب فصولها نشرت منذ نهاية الأربعينات ، والرواية اعتمدت أمرين أساسيين فهي أولا وظفت أسلوب الخبر كما عرفه العرب القدامى وجعلت منه الوسيلة الأسلوبية الأساسية في الحكي ، إذ أن النص يقوم على مجموعة من الأخبار حول شخصية خيالية غريبة الأطوار هي شخصية أبي هريرة ، وهي ثانيا اعتمدت تقنية تعدّد الرواة فالحكاية واحدة ولكن رواة عديدين يتبادلون روايتها وهم من أصحاب أبي هريرة ومعارفه ، وبذلك خضعت الحكاية إلى تهشيم مستمر للزمن وتعدد زوايا النظر ، وبذلك خرجت الرواية في وقت مبكر على السرد الخطّي الذي كان سائداً في الرواية العربية وفوق ذلك كله احتفت الرواية باللغة إذ عاد المؤلف إلى التراث اللغوي كما صاغه أشهر المبدعين العرب ، كأبي حيان التوحيدي ينشد ضالته لينشئ لغة تحمل رائحة العتاقة لكن فيها من الإبداع الشخصي الكثير . وفي نهاية الستينات كتب أيضاً عز الدين المدني نصاً روائياً ظل مفتوحاً وأثار ضجة كبرى وهو رواية " الإنسان الصفر " وقد تعامل فيه كذلك مع اللغة تعاملاً مغايراً عارض فيه القرآن ومستويات لغوية أخرى مما يجعلنا نستنتج أن التجريب الروائي في تونس كان بالدرجة الأولى تجريباً لغويّاً ولئن ظل تأثير " الإنسان الصفر " محدوداً فإن " حدث أبو هريرة قال " أصبحت نواة لمدرسة في كتابة الرواية هي مدرسة محمود المسعدي ، وفي هذا السياق يعدّ صلاح الدين بوجاه وفرج الحوار من أبرز المريدين إذ نهجا في كثير من أعمالهما نهج المسعدي في التجريب اللغوي ، ويستطيع الناقد أن يعثر على حضور صاحب كتاب " حدث أبو هريرة قال : في روايات مثل " الموت والبحر والجرذ" و " النفير والقيامة " " (لفرج الحوار) " ومدوّنة الاعترافات والأسرار و " النخّاس " (لصلاح الدين بوجاه) إذ سار الكاتبان على نفس النهج في صياغة العبارة الإنشائية وفي بناء الشخصية وفي الموقف الإيديولوجي الذي يتبناه السارد في بعض الأحيان رغم الطاقة الإبداعية الكامنة في هذه النصوص ورغم التجاوز الذي نلحظه في بعض الآثار الأخيرة والسعي إلى التخلص من أثر هذا الكاتب الذي طبع مخيّلة بعض التونسيين .

2–3– تدعمت المكتبة القصصية التونسية بأقلام نسائية كثيرة ، ورغم أن الكتابة النسائية في تونس لاتزال في بدايتها فإن ما أنتجته المرأة إلى حد الآن يقدّم لنا صورة عن واقع المرأة التونسية وعن أسلوبها في الكتابة فقد تعددت المجموعات القصصية لكاتبات مثل : حفيظة قارة بيبان ، " بنت البحر " ، وفوزّية العليوي ورشيدة الشارني وفاطمة سليم ، وظهرت في السنوات الأخيرة مجموعة من الروايات لعروسيّة النّالوتي (مراتيج وتماسّ) وعلياء التابعي (زهرة الصبّار) وآمال مختار (نخب الحياة) بيد أن امتلاكهن لأسلوب الكتابة القصصية يقوى ويضعف عند هذه الكتابة أو تلك ، وقد يعاب عليهن جميعاً سطحية التجربة الحياتيّة لديهن ، مما جعل هذه النصوص تقع في ضرب من التشابه لكأن صاحباتها تعشن في بيت واحد ، ومع ذلك فقد أثارت بعض النصوص الانتباه كرواية " زهرة الصبار " لعلياء التابعي وذلك لجرأتها في طرح واقع المجتمع التونسي من خلال رؤية يسارية جديدة .

3– ولقد خضعت القصّة التونسية لمؤثرات أدبية عديدة ، فمنذ نشأتها الأولى مع علي الدوّعاجي تركت قراءات القصة الأمريكية آثارها في مجموعة " سهرت منه الليالي " ولذلك تميزت هذه النصوص الأولى بنزعتها الساخرة

وبأسلوبها المتجاوز للمعايير التقليدية آنذاك . كما تبدو آثار الرواية الفرنسية واضحة في رواية " حبك دَرْبَانِي " والدّقلة في عراجينها " للبشير خريف الذي لاشك أنه قد قرأ فلوبير إذ نجد في الأثرين بعض المقاطع خاصة تلك التي تصف الأثاث توُحى بعلاقة أدبية واضحة وقد تمادى أثر بعض الاتجاهات الحديثة للرواية الفرنسية الجديدة في روايات "ن" لهشام القروي والرواية الأولى التي كتبها فرج الحوار وهي مؤثرات اثرت الإنتاج القصصي ولم تقطع بما يصدر من أعمال قصصية في المشرق العربي ، ذلك أن الحركة الأدبية في تونس عموماً تعد رافداً من روافد الإنتاج الأدبي في الثقافة العربية المعاصرة فالمؤثرات الأدبية الخارجية هي مؤثرات عامة والعوامل المختلفة سواء كانت اجتماعية أو سياسية ولا يتميز هذا النص أو ذاك في الأدب العربي عموماً إلا بما يمتلكه مؤلفه من قدرة إبداعية خلاقة .

❒❒

القصص

زرنيخ!

قصة : صلاح الدين بوجاه

النّصل اللامع يهوي على الأعناق النحيلة، الرؤوس الصغيرة تتدحرج الواحدة تلو الأخرى في تشنج غير إرادي ثم تتجمّع في حذر قرب الموقد الملتهب أما شمس الظهيرة فتسطع فوق السهوب تكشف الشجر والناس وحقول القمح المنسابة حتى مرمّى البصر.

مرّةً كلُ شهرين أو ثلاثة أشهر... كلما تكاثرت الجِراء في الضيعة، أو ولدت كلبة سائبة في الأحراش القريبة، أو شاع الداء الخبيث بين كلاب الأنحاء، يهرع الأطفال إلى السّلال ومقاطف السَّعف يملؤونها مخلوقات صغيرة عاوية، من هذا الكوخ الخرب أو تلك المغارة في الوادي، أو خلف كومة التبن العالية، تجرّها سواعدهم الصغيرة في حذر، ثم يفتحونها واحدة تلو الأخرى أمام عيني راجح الشرهتين.

يُمسك العجوز بالفأس، يُمرّر راحته فوق النصل اللامع الذي مافتئ يُسَنْ على الدّوام لغايةٍ غير معلومة.

وما إن تلمع الشّفرة في الهواء، حتى يختفي الأطفال خلف الجرّار القديم، أما الجِرَاءَ فتلقى حتفها في تسلسل محسوب...!

الخارج من الكيس هالك، والعائد إليه هالك، والخائف المنتظر غير ناج من النصل المحتوم!

تتشنج عضلات العجوز راجح، يتمطط جبينه الأحمر المدبوغ، تلتهب عيناه ببريق مكتوم، تنفتح خياشيمه وتهتز أرنبةُ أنفه حمراء داكنة، وتبرز عروق عنقه وأعلى صدره؛ ثم يهوي عل كتل اللحم الصغيرة العاوية داخل المقطف أو على كثب منه أو حذو الصخرة الرمادية التَّرِبَة، فينبجس الدّم قانياً، ويتطاير فوق أوراق شجرة الخرّوب الطاعنة.

الشمس تسطع رائقة هذا الصباح، ورائحة آخر أيام الربيع تنتشر في الضيعة، يخرج الجرو الأول من الكيس، لونه مثل حبّات الكستناء المشوية، يخطو خطوتين، فتغمره نسائم الحقول، وفي لمع البرق تهوي الفأس تجتث العواء المكتوم.

ثم يخرج الثاني، يليه الثالث، يربدّ وجه العجوز راجح، ويُثار الغُبار تحت ضربات الفأس رمادياً داكناً ويزدادُ الأطفال خلف الجرار القديم تراجعاً...!

يَمرّ الوقت ثقيلاً، ثم يظهر الجرو الرابع: يمدّ عنقه خارج الكيس، يتقدّم حذراً، يلمح شعاع الشمس من خلال أغصان الخروبة، يُحدّق في عيني راجح.. وفي لحظة هاربة يُبصر النصل اللامع تحت زرقة السماء.. كانت لحظة مثل دهر..

تقهقر الجرو الرابع، أراد المغامرة، حاول أن ينكفئ ويُقعي على مؤخّرته، رمقه العجوز بنظرة فاحصة فلمح في قسماته مزيجاً من الاستعطاف والتّحدّي؛ بل إن عينيه المحمرّتين من أثر الرّمد قد اتخذتا ألق عيون الذئاب اللامعة في الليل البارد.

كانت لحظة بطيئة، فكّر العجوز فيما لا يكون وارتعدت أوصاله، هوت الفأس نحو الرأس الوبرية الصغيرة؛ وقبل أن تجتث العنق النحيلة في حركة فاصلة انثنت يميناً وارتطمت بجبهة الجرو الخامس المطل من الكيس في وَجَلٍ

وتحسّب..

نجا الجرو الرابع!

نجا وارتد يكتم عواءه، وانساب نحو كومة التبن وانغرس داخلها تصحبه خشخشةٌ جافّة.

لا يذكر الأطفال أن العجوز قد أخطأ ضحية من ضحاياه الصغيرة: القطط وجراء الكلاب والقنافذ والثعالب وبنات آوى...

رَمقوا العجوز بنظرة استفهام وريبة ولمحوا فوق صفحة وجهه الداكنة ظلّ غيظ مكتوم! ثم سمعوه يرسل قهقهة شرسة وهو يهزّ الشفرة في الهواء يغرسها في جذع شجرة الخروب:

– نعم.. يحدث أن تنجو الجراء أحياناً!..

قبل مغيب شمس ذلك اليوم كان الأطفال يبحثون عن الجرو الرابع، فتشّوا داخل كومة التبن، قلّبوا الأغصان اليابسة، أزاحوا أكياس الجُلبّان والقرفة والحمص..

كانت فاطمة هي التي ظفرت به: وضعته بين راحتي راجح في فرح، فرَمَقَهُ العجوز وهو يخفي ظل ابتسامته:

– عيناكَ تزدادان حُمرة... هذا الرمد يكاد يذهب بهما!

أحاط الأطفال بالشيخ والصَّبيَّةِ والجرو، استفهموا في صمت:

"أيُمكن أن ينجو من الفأس.. ثم يصيبه العمى!؟"

قرّرالعجوز في ثقة وأناة:

– حمامَ الزرنيخ.. غداً صباحاً ينعم هذا الصغير الشجاع بحمام زرنيخ بارد يُنعشه ويزيل رمده...

دفع الجرو أصابع العجوز بخياشيمه، وأخذ يلعق راحتيه بلسانه اللين الرّطب..

الأطفال لا يسألون: "ماالزرنيخ!" العجوز يُحدق في عيني الجرو، الصّبيَّةُ فاطمة ترمق العجوز، تسبر غور عينيه المحمرتين من اثر السهر ودخان الموقد المُرتجل: وليل السهوَب شيئاً فشيئاً على الكائنات بنسائمه الباردة وظلامه القديم.

على كثب من البئر صبّ العجوز دلاءَ ماءٍ في تجويفٍ مستطيلٍ نَقَرَهُ الأقدمون في الصخر؛ جعل فيه زرنيخاً أخضر، ثم عالجه بشيء من الملح والخل..

تغير لون الماء، دنا الأطفال مبهورين، التفوا حول راجح الُممسك بالجرو، سأل أحدهم :

– من حفر هذا الحوض؟

– أجاب العجوز؟

–القدامى كانوا يتخذونه تابوتاً لدفن الموتى... أو لعلهم يطّهرون فيه أطفالهم!

قالت فاطمة:

– ماهذه الألوان التي تجعلها في الماء؟

لفّها العجوز بنظرة هادئة، وهمس وهو يُرخّم اسمها:

–فا... انظري ولا تسألي!

ثم ازداد صوته خفوتاً وقال:

– بعد حين تُصبح عينا الجرو في لون عينيك: خضراوين مثل فستُق مُقشَر، سأشرح لك ذلك فيما بعد!

توردّت وجنتا الصبية، ابتعدت خطوة أو خطوتين، دنا العجوز من الحوض ودلّى الجرو في الماء.. فتخبط عاوياً يكادُ يغرق، ثم استوى يسبح عند السطح رافعاً رأسه الكستنائية الجميلة ناظراً إلى الأطفال في زهو ...

أمسكت به راحتا العجوز المعروقتان ، ثم غمستاه تحت الماء:

– ما هكذا يكون الغوص، ينبغي أن يلمس الزرنيخ عينيك، وينطبق عليهما الخل والملح حتى تخشى العمي... حتى توقن بالغرق!

خفق الجرو داخل الزرنيخ المخلوط، خبط الماءَ بذنبه القصير، تشرّب اللون...

في حركة سريعة، وبأصابع دَرِبة، اجتذبه العجوز من الماء ولفّه في خرقةٍ بالية تُدِثّرُهُ وتُجَفِّفُ شعره، نظر الأطفال وصرخوا في دهشة: – هذا جرو أخضر!..

ابتسم راجح، وقال :

– بعد أيام يعود وبَرُهُ إلى لونه الحيقيقي، لون الكستناء المشوية، أما العينان فتلبثان فستقيتين، المهم أن يُشفى نهائياً من داء الرّمد...

اقبلت فاطمة على كتلة اللحم الصغيرة المرتعشة تدثرها في لطف:

– هو في لون الزرنيخ... هو الزرنيخ...!

شيئاً فشيئاً نشأت روابط حميمة بين العجوز والجرو، روابط تمازجت فيها انفعالات شتى: الودّ والعرفان والحذر والتحدّي والخوف!

لم ينسَ راجحَ وميض النصر في العينين الحمراوين الصغيرتين لحظةَ أخطأ النصل العنقَ وارتدَ بين يدي الشيخ... ثم وقع على رأس الجرو الخامس؛ فلبث الجرو الرابع... "زرنيخ" طليقاً مُعافى!

أما "زرنيخ" فلن ينسى أعناق الجراء تتطاير في الهواء يسبقها نثار دمها الأسود!

صورتان من مشهد واحد لبثتا عالقتين بالرأس الآدمية الشعثاء.. ورأس الجرو الصبور ذي العينين الخضراوين.

لكنّ التواطؤ يُمكن أن ينشأ بين الكائنات رغم أصناف الحذر والحقد والموجدة التي تهزّ هذا أو ذاك سَاعَةَ العودةِ إلى أحداثِ الزمن الأول.

مثل هذا التواطؤ المبهم، القائم على توازن هشّ من توازنات الطبيعة، نشأ بين راجح وزرنيخ والصبيّة فا....

كان العجوز يُطاردُ الصبية داخل حقول القمح الشاسعة الممتدّة على مرمى البصر، حيث السنابل في لون الذهب تتموّج تحت نسائم أواخر ماي الحارة.

تُفلتُ الصبية، تتعثر في حيائها، ويلبث صَدَى الصوت مُخترقاً صمت السباسب:

–فَا... فا... يا ... فا..!

يُجيبه السهل البعيد بهمهمة صامتة! وتندس الصبية الرعناء بين السنابل تحتمي من وقع الصوت النَّزِق:

– فا... فا..!

فاطمة في طراوة الصبا، غضّة العُود، فستانها الواسع مُزهر على عادة الصغيرات في هذه السهوب الحارة...

تنساب في الحقل، حَوْلَهَا القَمْحُ والشعير فوق سيقانه المديدة، السنابل تَخِزُ جسمها الصغيرة في مواضع شتّى عبر الثوب المُسْدَل رجراجاً حتى أخمص قدميها، والنّداء المكتوم يبلغ أذنيها أخرس حاداً فيه حرقة وَجِدَّةٌ وضراعة:

– فا... يا ... فا..!

فاطمة تغذّ السير، تعدو، يسبقها خوفها، تتعثر، توشك على الوقوع! تتردّد لحظة، تندفع في الحقل الذهبي الحارق حتى مُنتهاه، تندفع تحت سياط ذُعرها الأصيل... والعجوز خلفها يدنو لاهثاً محزوناً منكسراً:

–فا... ألم تسألي عن عيني "الزرنيخ" ألم تسألي عن الحوض القديم... سأطلعك على كل شيء..

خطوات قليلة تفصل فاطمة عن نهاية الحقل.

بعد لحظات تطأ قدماها الصغيرتان العاريتان المسلك المُترب! هل يكفُّ العجوز عن مطاردتها؟ أم لعله يكون هنالك، فوق التربة الصلبة، أقدر على العَدْوِ خلفها... رغم سنواته الستين!؟

حمحمةُ جوادٍ تأتي ضعيفة من بعيد، فاطمة تجدّ في الهروب، الحرارة خانقة والعرق المتصبب يغسل جسمها الصغير ويبلل الثوب، ويتفشى نُثَارُهُ حَوْلَها في الهواء!

لم تفهم جيّداً مالذي حدث، أو كيف حدث! كان الشيخ– واسع الحيلة– قد سبقها من حيث لاتدري! فهو عليم بالحقول والحمادات والأودية... حقول القمح، والشعير، والعنب، والذرة، والجُلبّانِ، لِكُلٍّ منها مسالكها وأسرارها!

كَمَنَ عند نهاية الحقل حيثُ تتموّج سنابل الأطراف وحيدة بعيدة عارية كَمَنَ مثل ذئب!

فكَر في مباغتتها هنالك في العراء، وكان له ما أراد، فما إن وطئت قدماها الأرض المبلطة بالتربة البيضاء الساطعة حتى انتصب أمامها طويلاً مُعَافَى تعلو مُحَيَّاهُ الأسمر الأحمر العريض ابتسامة ماكرة بلهاء، جعل عصاه خلف عُنقه وأمسك بها من طرفَيْها بكلتا يديه.. ولبث يحدق في الصبية المندفعة نحوه في قفزة أخيرة لم تحسب لهاحساباً.... وأنّى لها؟!

في اللحظة ذاتها، ومن مسلك آخر مُتَوارٍ حِذْوَ أخشاب حاجزِ الحقل المجاور... ينبثق زرنيخ صغيراً مندفعاً حاداً، فيكتمل الثالوث: الصبية، والعجوز، والجرو...!

لم يَعْوِ، لم يُحرّك ذَنَبَهُ القصير المتشنج، لم يتشمم الهواء، بخياشيمه الصغيرة السوداء، إنما اكتفى بالنظر، فتح عينيه واسعتين، وتجمد مثل كلب صغير من خزف الصين البعيدة!

كانت العينان خضراوين زرقاوين، كان لونهما غريباً وسطاً بين هذا وذاك...! لكنهما تحوّلتا شيئاً فشيئاً إلى لون الجمر، استعادتا لونهما الأصيل، لون ذلك اليوم البعيد.. لون اللقاء الأول بين العجوز والجرو، لحظة لمع النصل في الهواء... فرمقه الكائن الأعزل الصغير بعينين لَوَّنَهُمَا الرّمد وامتزج فيهما الخوف بالتحدّي!

انثنى الشيخ وَانْدَسَّ بين السنابل المرتفعة لا يلوي على شيء! هل أَحَس بالعري والانكشاف، هل خشي زرنيخ هل أصابه رعبُ العينين الملتهبتين مثل جمر الثلوج فوق جبال الشمال؟!

لا أحد يعرف حقيقة الأمر!

كلّ ماهنالك أنّ الصبية فا.. قد شُوهدت تعود إلى الضيعة هازجة يُسمع لضحكها مثل رنين الحلي فوق الزجاج،

يتبعها زرنيخ متمسّحاً بقدميها العاريتين مثل قط صغير أليف.

شاع في الضيعة نبأ المطاردة، فا.. لم تتحدّث! تُرى من لمح المشهد في الحقول؟! أم لعل وجه العجوز الأسمر الأحمر قد فضحه من حيث لا يدري؟ أم تُراه "زرنيخ"!

انفضّ الأطفال عن العجوز راجح بسرعة ودون تعليل، لن يأخذوا من سلاله حبات المشمش وحبّ الملوك ولن يتخطفوا من مقاطفه عناقيد العنب سوداء لامعة ريّا، ولن يتناولوا من راحتيه الواسعتين ثمرات الفراولة الحمراء اللذيذة، ولن يملؤوا قفافه بما يجود به آباؤهم من حلوى ونقود صغيرة لامعة ولفافات تبغ أو قراطيس سُكرّ وتمر...!

ذهب الزّمن القديم، ومرّت الشهور الطويلة ثقيلة وتبدلّت أحوال...!

لكن ثأراً مُقيماً لبث متفشياً هنا وهناك مُخيّماً على الضيعة حاضراً في رأس زرنيخ يكاد يذهب به ثأراً أضحى يُلحْ على الرأس الآدمي الأشيب... ثأراً انبثق من المشهد القديم، ثم أيقظه الصِّدام بعد المطاردة... وزادته همسات الأيام الأخيرة حِدَّةً..

لم يتمكن زرنيخ من نسيان الجراء تمزّقها الفأس، ونثار دمها المتخثّر يتطاير في الهواء، أما راجح فلن يُمحى من ذاكرته وميضُ التحدي الذي بدا في العينين الزرقاوين الخضراوين لَحْظَةَ المواجهة التي جعلتهم وجهاً لوجه: العجوز والصبية والجرو!

اختفى العجوز في الحقول البعيدة، وأضحى ينام تحت أشجار السرو مُنكفئاً على وجهه فوق التراب، منكفئاً مثل رضيع يحتضن شيئاً وهمياً... يحتضن خيبته!

يلبث صامتاً يُنصتُ إلى الريح تكادُ تجتث أوراق العنب، والتوت والتين! فيزداد التصاقاً بالكائن الوهمي الذي يسكنه، هذا الذي يأكله من الداخل.. حتى إذا مالمح فاطمة عن بعد في بعض الأوقات النافرة، أو خُيّل إليه أنها تمر قرب ناعورة الريح صغيرة متوردّة الوجنتين منسابة.. أمسك بالعصا الغليظة يهزها بقوّة وأخذ يخور مثل ثورٍ يُساق إلى الذّبح...

ثم ينبثق في الريح والحقول؛ تتكسّر السنابل عند عبوره، تطأ قدماه العريضتان القصبات الصغيرة والحبات الصفراء المتناثرة، تفقس بيض الحجل البريّ وتجتث السيقان المستقيمة وتقتلع فزاعات الطير...!

يهتزّ الكائن التائه الذي يسكنه، تتشنجّ عضلاته، ينسابُ الدّم في عروقه، يندفع نحو وجهه، فيزدادُ احتقانًاً حتى يُصبح في لون السواد وتزوغ عيناه نحو غايةٍ غير معلومة....!

فوحُ بُرتقال ومشمش يهبَ من الشرق، النحل ينساب بين الأشجار سحابات صغيرة تائهة، الحرارة تُنبئ برذاذٍ خفيفٍ وشيك، أما العصافير وصغارُ الطير فتندس بين الأغصان لائذة بفيءٍ ظليل...

يكون حينئذ قدقطع الحقول جيئة وذهاباً، فلا ينتبه إلا وقد رجع إلى مكانه ينظر إلى الأرض تحت أشجار السرو العتيقة قد تناثرت فوقها الأوراق الجافة وحبات اللقاح والأغصان الصغيرة، ثم ينكفئ على نفسه يُعانق رُكبتيه مثل رضيع... وينام.

طاردها في الحقول، خلف البئر، عند الخروّبة الطاعنة، كَمَنَ لها في الوادي وخلف الجرّار القديم، أرسل إليها طاقات الياسمين، بعث تُوتّاً وخوخاً وكُمثرى...

الشيخ والجرو والصبية...!

طاردها في كل وقت، وزرنيخ كان حاضراً في كل مكان!

عدا مرّة.. كان الحرّ قد اشتدّ بعد الظهر وتصبّبت الأبدان عرقاً، وَجَدَ زرنيخُ الحوض العتيق مُلِئَ ماء، نزل يتبرّد، سبح مثلما لم يسبح قطّ، انتفض في الماء فأزال غُبار الطريق وأخذته النشوة..

وكان راجح قد حاصر فاطمة خلف البئر قرب شجرة التوت، أمسك عصاه في صلف واستعطاف، ورمقها بنظرة ظفر وقال في توسّل كالعواء:

– فيمَ الهروب!؟

لم تصرخ، لم تنهره، لم تدعُ أحداً، لم تهتف في الريح والقيظ: "زرنيخ" ... إنما أسبلت أهدابها وقد تضرجّ وجهها وما انكشف من عنقها وأعلى صدرها، ثم همست كَمَنْ يُغالبِ حِمْلاً ثقيلاً يعلم ألا مفرّ منه، كَمَنْ يغالب نَفْسَه قبل التسليم:

– أتركني...

لم يتقدم راجح قيد خطوة واحدة، دار حول نفسه، أصابه حياءٌ، لا عهد له به، غلبه الانفعال وأطرق لحظة؛ ثم أفلت بين الظّلال لا يلتفتْ...

هبّ زرنيخ من الحوض، تناثر حوله الماء في الهواء، لمح العجوز يتوارى بعيداً، لكنّه خمّن في عيني الصبية تسليماً لم يعهده!

عاد إلى الضيعة هادئاً ساكناً لا يهزّ ذَنَبَهُ القصير ولا يحرّك أذنيه ولا يدفع الهواء بخياشيمه!

كان الليل خافِتَ القمر بَدِيعَ النّسمات... وكان زرنيخ مُقعياً في صمتٍ وقد أَخَذَتْهُ اغفاءةٌ خفيفة لكن أذنيه ظلّتا قائمتين تتشرّبان حفيف الأغصان وأصوات الريف المكتومة وهسيس الريح في السنابل، بدت الطبيعة منصتة إلى هديل يمامها وصهيل جيادها البعيدة.

فجأة، ينتفض الجرو كالملسوع!

بَدَا ظهرُه مثل قوْسٍ مشدودة، وبدت ساقاه مضمومتين إلى بطنه، أما عيناه فمثل جمرتين في كوم من الكستناء المشوية، ثم حشرج في نباح كالنّحيب؛ وقفز في الفضاء يكادُ يطير...!

لم ير الصبّية تغتسل في ضوء القمر لم يلمح العجوز ينفض التراب عن ردائه الوبري الأصهب... ولم يُنصت إلى حفيف أوراق التوت تتساقط في الماء واحدة بعد أخرى...

... لكنه أحسّ أنه اليوم يُذبح مرتيّن!

كادَ يشعربنصل الفأس وبالعصا الغليظة تنهالان عليه ترضّان جسمه الصغير، وكاد يرى رأسه تنفصل عن عنقه... ونثار دم متخثّر يلطخ التراب والصخرة البيضاء..!

تألقت عيناه الخضراوان في لون الفستق المقشّر، وقفز في الفضاء مرّة ثانية، فتلقفه الحوض الأثري القديم، وغاص في الماء..

قال العجوز يسأل فا... خلف التوتة العارية:

– أهو يسبح أم يغتسل؟!

لم يَطْفُ الجرو.. واكتفت الصبية بالنظر في الليل والصمت وهي تغطّي ركبتيها بطرف ثوبها، وتنفض القش عن خصلاتها المُسْدَلَة.

أتهدر الصحراء دمي؟

قصة: بنت البحر

أين أنا؟

الصحراء تنبثق فجأة من حولي... حلما غامضاً حرا... بحارا رملية تتوالى موجاتها بلا نهاية.... صفراء... كثيفة... صاعدة... نازلة.

الصحراء الشاسعة الحارقة... الصامتة الغامضة تبتلعني... تلسع رمالها قدمي .

أي جنون رماني في هذه البقاع المجهولة؟ كثبان الرمال تتوالى من كل جانب تبتلع أسئلتي، كأفاعي صفراء عملاقة تتعانق وتنسج مقتلي، والشمس بكل صلف وكبرياء ، تواصل حرق ما تبقى في رأسي.

أرفع رجلي بصعوبة عن الرمال ... لا شيء غير فراغ الصحراء وسكونها... والسماء رابضة، مثقلة الزرقة ، لا تبعث طيراً ونسمة أمل.

كيف وصلت إلى هنا؟ كيف وقعت في شبكة الضياع المفزعة؟ لا صحب ولا إخوة، ولا ذكرى تهدي إلى سبيل.

أحاول أن أهرب من بين فكي الموت وفتك النسيان اقتلع رجلي من الرمال . أحاول السير نحو أقرب الأكمات علّي أشرف على بعض النخلات دليل حياة قريبة، أو ألمح قافلة أو بدواً رحلاً، أو طريقا... أو حتى شجرة صبّار.

أسير...أتعثر.... أسقط وأقف من جديد... أحاول صعود الأكمة على أربع . العرق تتساقط حباته على عيني وعلى عنقي . يلتصق قميصي وبنطالي بجسدي.

العرق وحبات الرمل، ومكواة الشمس فوق دماغي ولون النار ينتشر أمام ناظري . ألسنة اللهب تتمايل تتلاعب بالصحراء... ترفعني أرجوحة مجنونة ترفع الرمال حولي وفوقي... وتدور بي.. تدور.

أمسك رأسي بكلتا يدي... أحاول إيقاف الأرجوحة النارية أتشبث بآخر خيوط الوعي.

الفضاء الأحمر الملغم يتلاعب بي، ومع ذلك أمسك الرمل والصخر بكلتا يدي... أتقدم ... أتعثر.... وأسقط... أقوم.... والصحراء تتحول سجناً فظيعاً تحرسه شمس حمراء تتلظى جهنما، حتى وهي على كتف الصحراء تنذر بالمغيب.

ها إني أسقط ملوثا بضياعي وزمني والليل قريبا يهوي على أكتاف وحدتي ، من جديد ، ألم بقايا من قوة ووعي.. أحاول الوقوف . أرمي طرفي حولي إلى الآفاق المريبة. نقطة داكنة تتحرك أسفل الأكمة يكاد يكنسها الليل. أثبت ناظري بما أرى... تتحرك النقطة باتجاهي، تتضح ... دابة تسير... أجل دابة تسير ..!. أخيراً ! هي الحركة في سكون الصحراء... دابة أسفل الكثيب ترتفع شيئاً فشيئاً مع الرمال ...خفق قلبي بقوة !.انفغر فمي ، ارتفعت يداي ترتعشان ، صرخت ... صرخت بكل قواي، ولم أسمع صوتي.. ومع ذلك، شاهدت الدابة تتوقف ، وراكبها الوحيد يلقي نظرة ناحيتي.

هل رآك؟ ... المسافة بعيدة ! أيكون هو السراب يوحي لك بما ترى؟ أم أنه الإغماء يتلاعب بك؟! جمعت قواك وركضت ، رغم تلاعب الرمال بك، رغم النظر الزائغ الذي لا يستقر... رغم السقوط المتوالي.... ركضت ولوحت بيديك.

وبدا لك أنك تصرخ والصحراء تردد صدى صرخاتك أهي الحياة ؟ أهي اليقظة بعد هول الكابوس؟

كان العرق يتصبب من كل نقطة من جسدي يغطي حتى ناظري.... ومن خلال الدم والدمع وحبّات العرق، لمحت يدا تمتد إليَّ وقبل أن أصل إليها سقطت، وانهار جسدي المرهق جوعاً وعطشاً وأعياء على أديم الصحراء.

فتحت عيني على برودة الماء ترش وجهي ويد تقترب تمسح جبيني. وشاهدت وجه أعرابي ينحني، يسائلني :- هل أنت بخير؟

يميل قربة الماء فيندلق الماء بين شفتي الجافتين يروى ظمئي ، ويطفئ حريقي.

كانت عينان سوداوان غامضتان تثقبان وجهي المنهوك وترسلان بريقا داكناً.

أخيراً ، بعد أن استعدت أنفاسي ، وجدت نفسي على ظهر الجمل والصحراء تترامى أمام ناظري أكثر تسامحا وأقل لظى... وصاحب الدابة يعتلي ظهر الجمل خلفي. تراجعت لأترك المكان.

لمنقذي من الموت المؤكد ليسوق دابته. ولكنه أصر على أن أركب مكانه وجلس خلفي. امتدت ذراعاه تحيطان بي، وتمسكان رباط الجمل. تململت في مكاني. أنكرت ركوبي في المقدمة، ولكن صوته علا يملأ سكون الصحراء:

- كيف يا أخي العربي؟! إكراماً لك ، أترك لك مكان القيادة وترفض؟!

كان الجمل يتهادى على رمال الصحراء ظل المسير زمناً دون أن يبدو لنا مستقر سقط قرص الشمس تماماً وراء الكثبان البعيدة ليترك السماء تلتحف بزرقة داكنة ، صافية صامتة. لم يكن بد من إناخة الجمل ، والاستراحة ليلة يستحيل فيها المسير. قفز الرجل من على ظهر الدابة وساعدك على النزول . بسط خيمة كانت معه. حاولت إعانته على غرس الوتد وشدّ أطراف الخيمة.

ولكن الإعياء والجوع كانا يضعفانك إلى درجة تكاد تصل بك إلى الإغماء . منعك من أي عمل وصاح فيك قائلاً:

- ادخل يا صديقي واسترح: فإنك بحاجة أكيدة إلى ذلك . وأتى بزاد وماء.

اندفعت إلى الطعام وكأنك لم تأكل منذ أيام طويلة. أكيد أنك تائه منذ أيام ، وقد عتمت ذاكرتك وفقدت الدليل. كنت تقضم الخبز الأسمر بجوع وشراهة ونهم وكان الأعرابي يمد لك اللحم المقدد فلا تمانع ، بل تنهمك في ازدراد طعامك كحيوان مفترس جن جوعا.

كان الرجل ينظر إليك ، وابتسامة مكتومة تبدو أحياناً على شفتيه.

لمحته ينهمك في إيقاد نار. بدا لك وجهه في ضوء النار دقيق الملامح ، صارماً ، داكن السمرة. نظر إليك بطرف عينه السوداء الغارقة في محجرها فوجدك ، وقد أكملت طعامك ، تتابع حركاته.

ضحك قائلاً:

- يبدو أنك استعدت عافيتك الآن ! يمكن أن نشرب الشاي ونسمر أذن !

عاد يهتم بناره.وبدأت ترنو لليل الممتد فوق الخيمة والنار الموقدة. بدا لك أن هذا الليل يضفي شيئا من الصفاء والوضوح في ذهنك .

يبعث إليك بشتات صور من ذاكرتك المدلهمة... أنت وأصدقاؤك المهندسون... النزهة على مشارف الصحراء.... النزهة أو جولة الاستطلاع ... كنت في مهمة، أجل ، في مهمة، لم أقل عنها شيئا لأحد... تنطفئ كشافات الصور وتعود ظلمة الليل تسكن الذاكرة. وتعود تتساءل:

كيف وجدتني وحيداً ؟ كنا على مشارف الصحراء ، فما الذي جعلني أوغل فيها؟ ... كيف أضعت من كانوا معي؟... وكم ظللت ملقى فاقد الوعي في عرض الصحراء..

وهذا الرجل إلى حد الأن، لم أساله من يكون؟ من أين أقبل؟ طمأنتني سمرته وسواد عينيه إلى أنه من أبناء الصحراء ، ولكن...

جاءك صوته منبها:

– الشاي يا أخا العرب!

كان قد جهز شايا ثخينا. ذاك الشاي الذي حين تترشف منه رشفة واحدة تدرك أنه من صنع أعرابي أصيل. شربتما وسمرتما. وأخذكما الليل، كلا إلى خبايا النفس لتعود تبحث عن أصحابك الذين ضيعوك، دون أن تبدي شيئا من أمرهم لرفيق الخلاء.وبدأت تشعر من حين لأخر بخدر يسري في أعضائك. يدب شيئا فشيئا يثقل الرأس ... لم تتعود ذلك بعد الشاي ... أيكون تعب الطريق وإرهاق الضياع؟ أم ما شربت من شاي الصحراء غير الاعتيادي ؟

وانتبهت إلى صوته يدعوك:

– تكاد تغفو يا أخا العرب! هيا! لنكمل الليل داخل الخيمة، ولتنم ملء عينيك!

دخلت مترنحا. تمددت على الأرض.... أحسست بجسمك مفكك الأعضاء ، وضوء القمر يتسلل إلى داخل الخيمة، يبدد بعض الظلمة مع ألسنة النار الموقدة. بدت الأشياء ملساء ، تغوص فيها برودة المساء ، يغلفها شيء من حزن ووحشة الصحراء.

لملمت بردك وانثنيت حول نفسك. ولففت نفسك بصعوبة بالغطاء الخشن الذي رماه عليك.

دلف إلى جانبك تحت الغطاء واقترب منك.

كان الخدر يسري في جسدك . وكنت متوجسا، لا تقدر أن تستكين للنوم . الليل بارد ، كاتم أسراره، والصحراء سكون وتوجس، وصاحبك يقترب منك. يلتصق بك. تساءلت:

– ألم يتعود بعد برد الصحراء؟

نفرت بعيدا وأغمضت عينيك. الأتعاب ما زالت قادمة وأنت ما زلت وحيدا ضائعا بدونهم . فلترتح ولتنم لتقدر على العناء القادم.

عاد الأعرابي يلتصق بك ... رفع يده على صدرك، تحركت كفه اللحيمة وأنامله الدافئة مداعبة مرتعشة فوق جسدك.

أخذت يده بقوة، ورفعتها... أحسست يدك ثقيلة، ثقيلة ... غمغم:

– البرد شديد.... أقترب اقترب لندفأ!.

تظاهرت بالنوم ولم تتحرك. كنت توليه ظهرك وناظرك المثقل يغرق في ليل الصحراء الطويل/ أحسست ذراعه تعود بلين إلى صدرك، تلتف حول جسدك ، وجسماً ضخماً يلتصق التصاقاً كاملاً بك، ورجلان متصلبتان تمتدان ، تحاولان الاحاطة رجليك . قفزت إلى ذهنك صورة ذراعيه تحيطان بك على ظهر الدابة وهو يركب خلفك. نفرت في حركة صاعقة. وصرخت:

– ابتعد! لا تقترب مني!

سمعت صوتك يخرج ثقيلا متقطعا كصوت مخمور. بدا لك أن نارا تشتعل داخلك... وصورا ملتهبة تتطاير في ذهنك... وأنت في مصيدة... ضخمة.... سوداء.

همهمت أنفاس قريبة في أذنك .... وسمعت فحيح شهوة رعناء.... اقشعر جلدك ...أردت الوقوف ... سبقتك ذراعان قويتان، أمسكتا بك ... شدتاك إلى الجسد الملتهب ... ضمتاك بعنف إليه... غرس وجهك في التراب ...

وسقط عليك كالصاعقة ، يمزق سترك....خبطت بيديك ورجليك وكل جسدك... حاولت دفعه.... لم تقدر. ضعف أيام الضياع عمل فيك... والشراب

المريب. والصحراء عدم وفراغ... لف جسده حولك كالثعبان..... لعابه يسيل،وعضلاته تتقلص.... وفحيح الأفاعي الجائعة يهدر... وكل سنوات القحط تحاول إذلالك والتهامك...

دعوت كل قواك.... كل وعيك لدفعه عنك... وفجأة ... شاهدت بطرف عينيك الخنجر المتدلي في غمده ، قريباً منك. لم يتركه حتى وهو يطلب عريك والجنون. الغمدِ يلتصق بجانبك الأيمن... ترتعش يدك... تتوتر أصابعك ... ولا تدري ... أية قوة خارقة سكنتك ... قدرة أتتك من أعماق التاريخ المضيء ، لتفك الخنجر اللامع من غمده..... وتنتفض فجأةً ، فتزيحه من فوقك إلى الأرض... وتنتصب ... وترفع الخنجر إلى فوق لتضرب الصدر قبل أن ينتبه من ذهوله.

تنفتح عيناه محدقتان في رعب... يحاول المقاومة ... يدفعك برجليه... يحاول القيام.. ترفع ذراعك لتضرب الصدر. تصرخ عيناه.... تلمح عينيه في ضوء القمر تحولتا زرقاوين فاتحتين وتشهد شعره العاري من الكوفية أشقر ... أشقرّ .. أشقرّ كيف حدث هذا؟ هل هو تحول الحرباء أم دهاء ماكر وقعت فيه وفخ لعين؟ كيف حدث هذا؟!..

أم أني عدت أعي الحقيقة حولي بعد ضياع وتيه؟!.... كنت أضرب الرجل الأزرق العينين... أقاوم الخدر في أعضائي ...أضرب والصور تتكشف لي، يضيئها لمعان الخنجر في ظلمة الليل... أصحابي الباحثين عن آبار النفط... أضرب... والدم يتدفق والنفط الأسود يتدفق... وأحبابي يتفرقون على مشارف الصحراء ... ويلد الشرق مشارق والغرب مغارب ... ويقترب الليل... وأتوه في الصحراء وحيدا.... ويعبث بي الشيطان... أضرب ... والليل يبعث بروق العاصفة تكشف خبايا الذاكرة... أضرب حتى يستكين...وتبقى العينان الزرقاوان زجاجيتين مندهشتين ، ويعود الصمت المطبق يلف الصحراء.

كان الخنجر في يدي يقطر دماً . وكان صوت طائرة غريب يزمجر قادماً غاضباً. أهو كمين جديد؟! أم هكذا خيل لي؟!

❑❑

بائعة الحمص

قصة : مسعودة أبو بكر

"حمص يذوب من البخار..."

"فول كالزبدةْ... يا من تريد أن تتمّق كسكسي رأس العام خذ لك قرطاساً.."

ترقرق صوت أنثوي عبر الأزقة التي نشطت فيها الحركة يفتتح مهرجان الأصوات المتفاوتة في نبراتها ووقعها وهتافها بقلب سوق "باب الفلّة".

داخل سطلين من النيلون الأزرق راحت يدا الصبيّة بائعة الحمّص تتسلّلان في رفق تداعبان الحبوب الصفراء الفاقعة، تخلل أصابعها بين جموعها المتراصّة فتنزلق الحبّات من كفّها، تغريها نفس المداعبة مع حبّات الفول السمّراء.

استشعرت فيضاً من الحماس يندلق داخلها وهي محفوفة بسطليها وأوراق اللّف..

ترفع عينيها إلى مدخل السوّق، تلمح الزحام فيتصاعد هتافها ليتحد بخضمّ النّداءات الأخرى.

نفس جيرانها يستقبلون اليوم الجديد بنفس الإصرار والحماس، بنفس الذراع التي تكل، بذات النظرات التي لا تعرف الاطمئنان، بنفس الملامح المفتقرة إلى الاكتفاء ... إلى الرّاحة

"القدّيدُ غدا، والسّمك اليوم... يامن ستزور أصهارك، لك عندي هديّتهم.. سمك جيد... سمك اليوم قد ترك بحره لأحضاني..."

يجول بصر الصبيّة في زنّدي "مصطفى الحوّات"، فتتراءى لها السّمكات الحمراء والسّوداء تنطّ متمرّغة بين ذراعيه فترتسم ابتسامة خجولة على شفتيها، ثم تشرد بعيداً...

كان ياما كان في سالف الزّمان: فتاة تحلم بجهاز عرس يهزّ القلوب، عاد أبوها الصيّاد يوماً بسمكة في طول ذراع..

" لن نبيع هذه السّمكة، لنشبع منها ولنهدي جيراننا قطعاً من لحمها"

وحين عالجتها الفتاة لتنظيفها وطهيها لمعت في بطنها ياقوتة كحبّة فول أصبح بفضلها الصياد وابنته من الأثرياء.

" ألا يحدث أن تحتوي سمكات "مصطفى الحوّات على لؤلؤة أو ياقوتة ياترى؟..."

يشرحُ حلم الصبيّة عم الجيلاني شيخ الستّين:

" خذ بخمسين... خمسون مليماً فقط سعرهذه الحزمة النّضرة من البقدونس، تخالها حبقاً..."

يتواصل هتافه، ينقطع أحياناً ليردّ على التحّايا بأحسن منها ...

يعلو صوت الصبيّة:

"حمص... فول يذوبان من البخار... خذي لك قرطاساً يا سيدّتي"

وتنشط أناملها في عقص أطراف الورق في أشكالٍ لولبية، عن يمينها قام هرمٌ صغيرأخضر قاعدته كيس قماش.

– نهارك سعيد ياعم الهاني... ملوخية العادة..؟

تربّع عم الهاني بإجهاد واضح لضيق المساحة... مرّر صفحتي كفّيه على الدّقيق الأخضر اللّدن.. زوّى حاجبيه وقد اتّسع ثقبا أنفه وبرز صدره ثمّ أطلق صوتاً مبحوحاً ينغّم هتافه في حماس:

"ملوخيّة توزرية... جارة الرمّان والعراجين"....

راحت الصبيّة تتأمّل صاحب الصوّت... تتفرّس في ملامحه وما يستر جسده بإعجاب سافر خصوصاً بحركاته التي يتحدّى بها شيخوخته القاسية.

طوبى له من شيخ دؤوب... يالعنة على الذّكور الثلاثه، ألايخجلون من دأب وعلوّ همّة هذا الشيخ الذي ينحني عند كيس الملوخية... هم النّيام إلى بعد الظّهر ؟"...

عادوا البارحة في صخب هزّ الحارة الهاجعة، سمِعَتْهم يتمجّنون مع رفقة من السكّارى فغارت برأسها تحت الغطاء إلاّ أنّها سرعان ماعادت لتحسره عن رأسها واستوت فوق الحشيّة: " ياساتر يارب،... هل سيميزّون سطل الحمّص من سطل الغُسل؟... تباً لهم...."

غدا قبل المضيّ إلى السّوق – يجب أن تغمسّ في الماء السّاخن سروايل ثلاثة... ستجدها بالسقيفة تفوح منها رائحة النبيذ، حتى إذا نهضت أمّها واهتمّت بالغسيل دعكتها بالصّابون ولسانها لايكفّ لاعنا حظّها والأولاد وكلّ من تزغرد لمولود ذكر.

***

يمتد جسر التحايا... تتمازج نداءات الباعة تتخلّلها تعاليق شتّى، تعاليق تتناول كلّ شيء تتنفّس عبره هموم الجميع وشكوى الجميع...

السّوق مكتظّة هذا اليوم.... شيء من الاطمئنان ينداح على ملامح الوجوه الكالحة...

يبدو أن قلق الأيام العادية لم يساور أحداً هذه الصبيحة... هل ستشفع غداة الموسم هذه، للسوق ياترى؟

– ماكلّ هذا الحمّص يا ابنة أمّك؟ لو ظلّ ليوم الغد فسيفسد طعمه وتزفر رائحته، فيعرض عنه الزّبائن...

– سوف لن تبقى حبّة ياعم الهاني، بماذا سيزدان إذن كسكسي رأس العام؟ ... أليس بالفول والحمّص! ... سترى بنفسك ... ربّما عدنا بعد العصر وقد بعت كيس الملوخية بأكمله ونفذ مافي السّطلين!..

–ربّنا كريم يابنتي !...

تأمّلت بائعة الحمص هرم الدّقيق الأخضر وقد وشّاه صاحبه بقرني فلفل أخضر... حلّق خيالها إلى قدر أمّها وقد استحال الدّقيق الأخضر بداخله خليطاً أسود لزجا، تتضوّع منه رائحة زكيّة تسيل اللّعاب.

"آه لو يتسنّى لأمّي أن تلقي بالقدر قطعاً من اللّحم الخالص لا عظم فيها، إنّها تكتفي دوماً بقطع من فروة رأس بقر..!"

"فيه الخير والبركة يا أولاد، ... كلّه منفعة وفيه شبع لكم... ثمّ هو لحم، وكلّه من أصل واحد...

فلماذا التذمّر....؟"

كذلك كانت أمّها تحسم الموقف إذا تذّمر أحد أولادها من وجبات الطّعام..

تجذّب الصبيّة زمام شرودها، تعود في حالة استنفار:

– عم الهاني أنت وليّ صالح..

تكشف ابتسامة العجوز الفجئية عن فمه الأدرد وهو يستوضح:

– كيف ذلك يا ابنتي ؟ ...

– إنك دائم الرّضى.. لا تتذّمر لحاجة ... لسانك لا ينطق بغير الهدى والكلام الطيّب...

" كثيراً ماأشتهي أن أرفع حجاب الصّمت عن صدري وأتذّمر أنا أيضاً كما يفعل أبي... كما يفعل الذكور الثلاثة ببيتنا ... كما تفعل أمّي... إلاّ إنّي أستحي كلّما استشعرت صمتك وقناعتك "

– الدنيا بخير يا صبيّتي، سيطرق ابن الحلال بابك وستتركين الحمصّ والفول وهذه السّوق ومتاعبها..

– قد أمسح دمعة من على وجنة أمّنا تذرفها قلقاً بشأن الذّكور الثلاثة الطلّح.

انحبس الكلام في حلقها فجأة..

حلّ الشيخ حبوته وانتفض واقفاً..

انداحت حمّى فجئية في أعضائها... هبّت هي الأخرى على قدميها، امتّدت ذراعاها لتمسكا بسطليها ... ولكنّ الأوان متأخر..

– كيف لم أتفطّن إلى دخولهم السوّق؟

– كيف لم تتفطّن ياعم الهاني؟ ... كيف لم نستمع إلى الإشارة؟ ... أترى يغفل الجميع، غير معقول أن يغفل الجميع.

– ربّما أمسكوا بولد الحوّات قبل أن ينادي بكلمة الإشارة؟ ... ولكنّنا غداة موسم ... ألا يريحوننا حتّى في المواسم؟ "

رأت الحبوب الصفراء والسّمراء تنجذب بوعائيها ... رأت ميزان بائع الملوخية يرفع هو أيضاً ومعه معاييره... وصناديق خضر وفاكهة... علب زيت مستوردة... علب تن... تبغ... قطع صابون لفافاتها أنيقة وجميلة...

رأت أيادي طويلة الأصابع والأظافر تنقض على الأشياء في حنق... تستلّها من مكانها ثمّ تلقي بها جميعها دون فرز في مؤخرة سيارة كبيرة الحجم.

إنّها نفس السيّارة التي يعمل لها الباعة المنتصبون يومياً بسوق باب الفلّة ألف حساب، يترصدّون قدومها من بعيد..يتحدّاها بعضهم ويهابها البعض الآخر...

تداهم السّوق ولا تغادرها إلاّ وفي جوفّها غنائم مختلفة من السّلع المعروضة، لذلك كانوايضعون إشارة ينبّه بها بعضهم بعضاً، يطلقها أوّل بائع منتصب بمدخل السّوق.

وكثيراً ماينشغل بزبائنه أو يروح لقضاء شأن فيحدث الضّرر بالبقيّة.

اشرأبت الصبية بعنقها بحثاً عن سطليها بين كلّ البضاعة المحجوزة.

تلك التي لم يسارع أصحابها إلى لملمتها وإخفائها إمّا في زقاق فرعي ضيّق أو في سقيفة أقرب منزل أو وراء عربة رابضة حذو الجدار.

كلّ تلك السّلع التي تغنّى بها أصحابها وتغزّلوا قاصدين بها باب الرزّق راحت غنيمة في جوف السيّارة.

– ألم ننذركم غيرمرّة بأن الانتصاب هنا محجّر؟

– محجّر، محجّر، لا نظنّكم تقولون غير ذلك... لو رحنا إلى الجحيم حتّى!

– محجّر، محجّر! ...

لوكنا أخليّنا هذا المكان ورتعت فيه القطط والكلاب السّائبة، وتراكمت فيه المزابل في زواياه، وتبولّ فيه السكارى هل كنتم تحجزّون ذلك؟ ...

تقترب الصبيّة من الشّيخ المرتجف، تحيطه بذراعيها، تتأمّل حاجبيه الكثّين وشاربيه المرتعشين... أحسّت كأنّما تحضن قصبة منخورة عصفت بها الرّيح.

– ويحي أخشى أن يموت بين يدي لو استمرّ هكذا، ارحموا هذا الشيخ... على رسلك ياعم هاني!!

– لو أنّ كيس الملوخية هذا يسمن ميزانية البلد لمددتكم به، خذوه، خذوه، هو أيضاً هنيئاً مريئاً... خذوا مادام الأخذ سهلاً لا يكلّف كالعطاء...

بداية الصّباح كانت تبدو مرضية، فأي مارد نفخ على هنائها بنار شرّه ياترى؟

انجذبت الأبصار ناحية "مصطفى الحوّات" حيث احتد الصّخب... كان ينتعل فردة حذائه الخشن في اليمنى وباليسرى راح يتحسّس الفردة الثانية التي انفلتت منه بين نفايات الخضر وكومة البطّيخ وهو يرعد غيظاً.

عيناه جمرتان تتقدان، عند زاويتي فمه يبس ريقه فابيض كرغو الصّابون في حين تصلّبت شرايين عنقه وذراعيه حتى كادت تنبجس دماً.

راح يدور على غيرهدى، يهوي على الصّناديق المزروعة هنا وهناك بقبضة يده... يهدّج صوته سباباً ووعيدا... يتفل وراء السيّارة المتسلّلة بغنائمها خارج الزّقاق.

– أبناء الـ....... أما قدروا على غيرنا أم أنّ رأس الأقرع قريبة من السمّاء؟ إنّ ما نحتله من مساحة لعرض سلعنا لا يساوي ربع ما تحتله سيّاراتهم الرّابضة عند ناصيتي الشّارع... نحن نشقى من شروق الشمس إلى مغيبها حتّى يأكل أبناؤنا خبزاً... أتغبطوننا على هذا الخبز ؟؟! ...

–لا يغني الكلام في غير مقامه يابني ، لنقصد مقرّ البلدية ونطالبها بإرجاع سلعنا وموازيننا، ولم لا رخصا نسترزق بها.

– كلا ... لن أستجديهم مرّة أخرى، أنا ذاهب لأنهب سيّاراتهم عجلة عجلة، وفانوساً فانوساً... حتى البراغي لأفكنها واحدة واحدة، وأبيع الكلّ في أسواق سقط المتاع حتّى أستعيد نظير ما أخذوامنّي...!!

السوق تضيق، تضيق بمن فيها بكلّ مافيها ...

كذلك استشعرت الصبيّة الواقفة مع الواقفين، اللاّهثة مع اللاهثين، السّاخطة مع السّاخطين...

غضون مبكّرة تشد ملامح وجهها الحزين...

تطلّعت إلى الرّجال، يتحفّز جمعهم للمضي إلى مقرّ البلدية.

يتشاحذون حماسَ بعضِهم بعضاً...

شدّت قبضتها تلوّح بها في اتجاه السيّارة التي غابت عن الأبصار...

– مالذي سيصنعون بسطلي حمّص وفول؟ ... أتراهم يغبطونني على دينارين يدفئان جيوبي الخاوية، يقيانني شرّ السؤال؟ أتراهم يغبطونني لو عرّجت على سوق الأدباش القديمة لأبتاع لي فستاناً ؟

تهالكت على أقرب صندوق تضرب بكفّها على صدرها.

–أمايزال الذكور نياماً ...؟ مورد رزقي الضئيل الذي يستنزفونه سجائر وشفرات حلاقة يهرق أمام ناظريّ... وهم يتكوّرون دون حياء تحت الأغطية ...

ستظلّ قمصانهم دون ماء مبيّض... قارورة الماء المبيّض قد ارتفع ثمنها ... كنت سأعود بها اليوم ... إلاّ أنّ الحبوب اندلقت هناك ... بجوف سيّارتهم الملعونة... سيرفسونها بأقدامهم..."

أين منها حماس اللّيلة الفائتة وهي تنقع الحمّص والفول حتّى تكون الحبّات منتفخة هشّة عند الصباح...

لقد ضاعفت الكميّة على غير مألوفها تحسبًا للطّلب...

شخصت في الرّجال عند مخرج السّوق ... يفرد كلّ منهم قامة انهدّ كتفاها تعباً ، وضمرت عند الوسط ... ينفث كلّ في خطاه حماساً مرغماً...

وفي غضون الوجوه تحتدم ثورة ويفور خذلان... كانوا صامتين، يشيعون جثمان أمل مصلوب... وحده ظلّ "مصطفى الحوّات" يهدر...

من حوله تمازجت روائح الخُضَر والفاكهة برائحة اللحوم والسّمك، وروائح البراز والمخلّلات بروائح البخور، وعبر كل ذلك المزيج تسرّبت عفونة نفايات عند الزّوايا الرّطبة الدّاكنة.

– عم الهاني انتظر!

نطت الصبيّة تستوقف الشيخ وهو في ذيل موكب الوفد الذي غادر السّوق:

–السّطلان ياعم الهاني، حبّات الحمص والفول قد اندلقت لاريب في ذلك، عدّ إليّ بالحاويتين إن هم أعادوا لكم الموازين، إنّهما من النيلون الأزرق...

... سأنقع الليلة نصيباً آخر من الحمص والفول!

❑❑

مثلث حاد الزوايا

قصة: محسن بن ضياف

لوحة (1) جدارية

طرق الباب، دخل صامتاً، بين شفتيه كانت النار تلتهم سيجارة يتعالى دخانها، يتسرب الدخان بين خياشيمه وشعر لحيته. لحية رسام بوهيمي. نظر إليهما، لم يقل شيئاً.

كانت عيناه محمرتين من أثر ليلة سهاد. ابتسما له. ردّ عليهما بإماءة من رأسه ولم يقل شيئاً، بسط قطعة القماش الضخمة التي يتأبطها، إذا هي لوحة جدارية متران عرضاً على مترين ونصف طولاً. صاحا بإعجاب. إنها رائعة بلا مجاملة، أخيراً أنجزت "الشيدوافر" الذي تحلم به. أخرج من جيبه مطرقة صغيرة ومسامير دق في كل ركن من أركان اللوحة مسماراً إلى الجدار.

امتد أمام ناظريهما بحر لا حدود له تعبث بأمواجه نسمات خفيفة فتعكر صفوها وتثير زبدها. في نهاية الأفق قرب الشمس، زورق يترنح في وحدة كأنه طفل تائه في الصحراء. أخذ يتأمل اللوحة استدار لهما ليشاهد أثر الإعجاب على وجهيهما وهما يحركان الشفاه بكلمات الإطراء.

ألقى السجارة على الأرض، داسها بحذائه الملطخ بالألوان. التفت إلى اللوحة. ظل جامداً يتأملها.

فجأة اندفع بقوة نحو اللوحة الجدارية. مزّق رأسه القماش الملون واندفع جسمه كأن اللوحة تشفطه. أخذتهما الدهشة وهما ينطران إليه يختفي كأن اللوحة تمتصه. لم تلبث أن التأمت أجزاء اللوحة. وامتد البحر في عظمته تتهادى أمواجه. من يومها لم يعثرا على صديقهما وظلت اللوحة على الجدار .

الجرح الثاني

كانت النبتة منغرسة في كأس عصير البرتقال والتبان يكشف عن أعلى الفخذين. وضعت يدها على شعرها وقد انسدل على كتفيها وأصابعها الرقيقة رفعت رأسها فبرزت أسنان كاللؤلؤ، وسوار من ذهب يحيط بالإصبع المحزون. كشفت الابتسامة الفاترة عن شفتين مشققتين كالأرض العطشى.

وضع إصبعه على انفه واحترقت السيجارة بين أنامله. ألوان وأشكال مختلفة متضادة متداخلة على صدر التيشارت وشعر مشدود إلى خلف بحاشية وردية. انطلق الحمام في هديله حزيناً مكتئباً يترنح بين الشجن والألم. مياه البحيرة تتدافع تتصارع في هدوء كأنها الحبيب يتقلب على فراش الحبيب. اندفع البجع ينزلق على صفحة البحيرة يدفع المياه بصدر الريش فتلين. الخمائل خلفها تتراقص على وقع النسمات. وفتاة سمراء نحيلة الجسد رقيقة كنسمات الربيع قد ألمّت لها الأفكار، فتاهت في الحلم. انزلق الحلم كشراع تائه بين حنايا الضلوع. ضامراً كضمور الأيام في متاهات الليالي، والأنهار. انبعث الصوت يتلوى كأنين الناي قال: يا سيدتي إن الرب أرسلني لأنكأ بأظافر الغفران الجرح الذي ما اندمل فابتسمت في وجل.

راكب الدراجة النارية(3)

كان ظهره مستقيما كتمثال نصفي يمتطي مقعد الدراجة النارية التي أخذ محركها يطلق فرقعات متلاحقة كأنها طلقات نارية، ساقه الخشبية تبدو كقارورة عملاقة من الخشب عنقها منحن نحو السكة الحديدية للمترو تطل من أسفل البنطلون يداه تمسكان مقود الدراجة النارية التي تقفز فوق القضبان الحديدية المنغرزة في أرض الشارع. كان مزهواً ورجله الخشبية تشق الهواء عن يمينه. الهواء يعبث بضفيرة شعر مسترسلة من مؤخرة رأسه.

رفع وجهه نحو السماء كأنه يضحك للشمس التي تربعت في كبد السماء يتحداها، وقد تسلح بنظارات شمسية على عينيه. فجأة ظهر "الميترو" في نهاية السكة الحديدية وأول الشارع ازدادت الابتسامة العريضة على شفتي راكب الدراجة إشراقاً. لم يتنحَ عن طريقه بدت المواجهة جلية بين الدراجة النارية و"الميترو" صاح بعض المارة:

– حذار الميترو.. ابتعد.

لم يهتم بالأصوات، كان واضعاً على أذنيه سماعة "ولتمان" يستمع إلى أغنية عاطفية..

لمّا صدم القطار الدراجة النارية قفز الشاب ذو الرجل الخشبية كاللولب ليتشبث بواجهة المترو. ظلت رجله الخشبية تتدلى تصطدم بالواجهة تحدث إيقاعاً غريباً لم يتعود عليه المارة، فتعلقت أعينهم بالشاب ذي الرجل الخشبية. تراجعت الدراجة تعدو سيراً إلى خلف أمام المترو، الذي أخذ يلاحقها مصراً على التهامها. لم يلبث أن لحق بها وافترستها عجلاته. ثم توقف.

نزل سائق المترو يزمجر غضباً وهو يقول إنه الطريق الذي خطته له الحكومة إنه طريقه هو لا يجوز لأحد غيره أن يسلكه أو يقطعه.. قفز الشاب ذو الرجل الخشبية إلى الأرض. انهال على السائق يضربه برجله الخشبية في بطنه وصدره ووجهه حتى أدماه وهو يصرخ به تعدون علينا خطانا وتقطعون علينا الطريق إن شوارع المدينة ملك للجميع.

أخذت الدهشة المارة فوقفوا مشدوهين. أطلت امرأة من عمارة تقف على أحد جانبي الشارع، التقطت عيناها المشهد، فسالت دموعها في صمت.

يوميات

قصة: فوزيّة علوي

أفتح الباب في صرير ثقيل بعد أن ألقي نظرة باهتة على الحديقة المجدبة.

يجلب انتباهي مرأى بريعمات لزهرة لا أعرف إسمها، فابتسم في دخيلتي.

أدق بقدمي المتعبتين وجه أرض يابسة كالصفيح.

لا منازل تشد الإنتباه في الساحة الفسيحة التي أقطعها كل يوم.

تضيع عيناي وراء ما انتثر فوق سطح الأرض: حصى، وقطع زجاج، وعلب صفيح مدهوسة، بعضها للطماطم وبعضها للحليب، ونادراً ما أرى علبة مربى أو معجون أسنان.

مسامير سوداء صدئة وسدادات متآكلة.

أصل إلى البيت القديم بشجرته الوارفة.

أمرّ إلى جواره.

الرائحة عينها، ولغط لنسوة يختلط مع صياح الأطفال.

كدس القمامة نفسه والحمار الأشهب المقيد، يلهي نفسه بمضغ أكياس بلاستيكية والدجاجات ينبشن بائسات.

ما هذا الزمن الذي لا قمح فيه ولا دود؟

الحمار بمضغه للبلاستيك، ازداد بلاهة.

نسي الخضرة والربيع وشباك "الحشيش" المترفة.

يثور في وجهي حشد في ذباب هزيل كان مجتمعاً على روث الحمار.

أشيحه بيدي وأحث الخطو.

تعترضني أكوام من الحجارة والآجر والبيوت غير الجاهزة. لكن أكثرها مسكون.

الخيش يتدلى على النوافذ، والأثواب داكنة الألوان، غير نقية الغسيل تتأرجح على الجدر والأشجار القريبة فيقطر ماؤها وصابونها على دجاجة مزهوة بفراخها.

إمرأة تطهو الخبز في التنور وتغني.

وعجوز تمد يديها وتنظر إلى ساعديها الهزيلين وهي تؤرجح رأسها في أسف بالغ، مضيت يا زمن اللحم المكتنز والأثداء الناهدة.

أصل إلى الشارع الطويل بدكاكينه المتشابهة المتلاصقة.

"حلاق الأحباب"، "مجزرة السرور"، "لحام عصري"، "دخان وجرائد"... وحزم التبن تتداعى على الأرصفة، والبغال الهزيلة تجر العربات المتآكلة المحملة بالإسمنت والحديد، يتعلق الأطفال بمؤخرتها، فينهرهم سوط صاحب العربة وشتائمه المقذعة. أقف عند بائع الملابس المستعملة، يستهويني قميص واسع، زاهي اللون، والحرارة الخانقة الأنفاس تعلن عن قدومها بألسنة من لهب، تلفحني بها ريح "الشهيلي".

أقلب القميص في نوع من الإمتعاض حتى أؤثر نفسياً على البائع، وأبين له أنني أشتريه مرغمة، وأنه من الموضة القديمة.

قماشه رفيع وأزراره مذهبة، لابد أنه كان لسيدة ثرية، لكنها ماتت مشنوقة في غرفتها البعيدة الباردة.

أتصور القميص مغسولاً مكوياً وأنا ألبسه في زهو، وأوهم صديقاتي أنه مستورد من تركيا أو من اليونان...

تغذي نسبة الأشياء إلى العوالم البعيدة في نفوسنا شعوراً عميقاً بالإرتياح. نسافر عبر كذبنا الأبيض، ونقطع البحار والقفار... أطيل الوقوف عند القميص، أصر على شرائه أتفطن في آخر لحظة أنه مثقوب على مستوى الصدر ثقباً لا دواء فيه.

أصاب بالإحباط، أتلهى بتقليب القمصان الأخرى والتنانير.

تأتي زبونة أخرى، أغافل صاحب القميص أقلع أزراراً جميلة من تنورة قديمة، أوهمه بأني سأشتري جوربا، أضعه ثم أمضي.

الصبية على الأرصفة من كل الأعمار..

بائع السجائر وقراطيس الذرة.

بائع حزم النعنع والبرسيم.

بائع الأواني البلاستيكية وحليب "لحظة" والصواني النحاسية المجلوبة من الجزائر قبل أن تستشري فيها المجازر.

أتوقف عند مرش زهر، أسأل صاحبه عن ثمنه. ينظر إلي نظرة تسعيرية من رأسي إلى أخمصي. تغريه نظاراتي الطبية ومحفظتي الجلدية.

– ديناران.

– هذا كثير.

– ليس على المعلمين.

– في السوق يبيعونه بدينار.

قال لي وهو يشيح بوجهه:

– أشتريه من هناك.

أقف عند بائع السجائر، أطلب علبة مناديل ورقية. زكامي متواصل، والطبيب قال لي هذا زكام الربيع والأرض مجدبة والزهور شحيحة والبغال تجر العربات في هزال بائس، والصبية يتعلقون بمؤخرات العربات وسيارات "الباشي" الوهينة السير.

نظرت إلى امرأة وقفت عند بائع المرشات غير بعيد. سألته عن ثمن أحدها.

نقدته ديناراً ومضت.

كدت أعود لأسأله عن كرهه لي.

قلت النظارات هي السبب.

كدت أقول له: "l`habit ne fait pas le moine" لم أستطع ترجمتها، ولا أظنه يفهم ما أقول.

الأطفال في صخب، ينتظرون المدرسة أن تفتح أبوابها، يضيعون في الدكاكين وبين أكوام الحديد والآجر والتبن والبرتقال والقمامة.

يضحكون كثيراً.

يأكلون الفطائر ولمح الهريسة والسردين.

يتذاكرون:
نشيد النور في شفتي
تعيش تعيش مدرستي
أحب معلمي الغالي
أحبك يا معلمتي
أرى علمي، أرى وطني
أرى الدنيا بمدرستي.
– "انتحر هنبعل لأنه أفاق صباحاً فوجد القلعة مطوقة"
– "إذا الشمس كورت، وإذا النجوم انكدرت".
– "ما معنى حصان طروادة"
– "تتبخر المياه، فتصير سحبا، ثم تثقل تلك القطرات الصغيرة وتسقط في شكل..
تمر شاحنة تتصايح خرافانها وتقذف ماء آسنا في كل الجهات.
أدعو بأعلى صوتي:
– عمى.
يضحك الأطفال من فستاني الملوث.
أسرع الخطو.
أمر على المستوصف فأرى النساء ببطونهن الكبيرة، الأطفال يزعقون على ظهورهن.
كل واحدة ودفترها كل واحدة ومصيبتها.
يرمقنني بحسد أو باستياء.
يوشوشن عني كلاماً غير أنيق، أعرف ذلك من نظراتهن وضحكاتهن.
"مكتبة العلا"
– ناولني ظرفاً وقلماً أسود، ألا تبيع الكتب؟
– لا أحد يقرأ.. هل تريدين كتاباً معيناً؟
– أردت أن أوصيك أن تأتيني بالكتاب المقدس إذا أمكن.
لا يبدو أنه أدرك ما قلت، لكنه علق:
– هذه كتب صعبة، لا توجد إلا في العاصمة.
توقفت عند صديقتي الحلاقة.
أسعفتني بكأس عصير مثلج.
سويت شعري على مرآتها ونظفت بقع الماء الملوث.
سألتني إن كنت سأذهب إلى تونس، قلت ربما وخرجت.
قالت لي وهي تبعد الستارة: سنفتقدك.
ابتسمت ومضيت.
تلمست جيبي وأنا لا أكاد أصدق، كتابة أنيقة بالماكنتوش، واحترام فائق، والجامعة العربية تنقد بالدولار.

اعترضتني "التقازة "(*) بردائها المخطط، وقفتها وطفلها الرضيع.
إيه.. كم مضى من الوقت لم أسمع فيه صوتها الصادي.
قالت لي: هل أرى لك البخت؟
ضحكت في وجهها ونقدتها خمسمائة مليم.
شكرت ومضت، عرفت أن حيلها لا تنطلي علي.
اعترضتني الخرفان والأولاد ورأيت جمعاً من الفتيات يصفقن ويزغردن والعروس تمشي وسط قعقعة السطول إلى الحمام، مشيها متعثر، والسفساري يلهث فوق الأرض.
امتطيت تاكسياً.
الرجل نظر إلي في المرآة، وسألني عن وجهتي.
قلت: معهد الفوز.
زمجر المحرك وانطلقت السيارة فتأرجحت المسبحة والقرد البرتقالي.
وقرأت على لوحة القيادة "هذا من فضل ربي".
أغمضت عيني وتصوّرت نفسي بعيدة عن هذه المدينة.
قلت بصوت مسموع: "ومن سواها سيهبني هذا التعدد وهذه الفوضى المتناسقة".
قال السائق: تكلمت؟
قلت: لا أستحضر درسي.
قال: يقولون إن المعلمين ينتمون إلى الجنون.
قلت: ربما.
أطل "الشعانبي" شامخاً.
شعرت بالارتياح. صنوبره داكن الخضرة كالسحاب الممطر.
دعكت الورقة بين يدي، رميتها بدولاراتها. دخلت القسم... أبحرت في قصيدة للمتنبي.

❒❒

* التقازة: العرافة.

المرأة التـي حلقت شوارب الخليفة

قصة : ناجي الجوادي

قال الراوي : "حدث هذا في النصف الثاني المتمّم لصفر الخير لاثنتين وستين سنة خلت بعد عام الدقيق المرّ...

انفضّ المجلس وأصحابه على أشدّ ما يكون المرء شوقاً إلى تواصله واستدامته لو لا الارهاق الشديد الذي نال من " أناهيد " لطول الغناء والعزف على العود ، فلم تجد بدّاً من إنهاء المجلس.... فهي صاحبة القرار فيه واللولب المحركّ الذي تدور حوله أحداثه .... إلى ما أصاب الندماء والساهرين من طول الشراب والسهر والاستزادة من صنوف المتع والشهوات وما أبقوا منها على شيء ....

دخل أبو العبر – كبير الندماء _ إلى المقصورة يوقظ زوج أناهيد المضطجع بجسمه الضخم في ركن منها بلا حراك وكان رجلاً نؤوماً سريعاً ما يغلبه النعاس بعد احتساء كأس أو كأسين ... استفاق متثاقلاً وأمسك بالعود في غمده متبرّماً ، منتظراً خروج أناهيد التي كانت تستمع مع بقية الساهرين إلى كلمات الخليفة وهو يودع ضيوفه ويذكرهم بالبحث عن نديم جديد يؤنس المجلس في لقائه القادم ....

يكون لطيف المحاورة .. خفيف الظلّ ... بريئاً من ثقل المؤانسين .. سريع الوثبة إذا أمر .. حاضر البديهة ومليح النادرة إذا تحدّث أو سئل ... شريطة أن يكون منقطع الصلة تماماً بتلك الزمرة الضالة من أصدقاء الخليفة القدامى الذين تنكروا له وأغراهم حبّ الذات والتفردّ بمقاطعة مجلس الخليفة وإقامة مجلس ثان منافس يستقطب أغنى الأغنياء من التجار والمزارعين وأصحاب المال في صراع خفّي بدأ يستشري في المدينة بين السلطة وسطوتها ونفوذها وبين المال الذي يفتح كلّ الأبواب ويقول للشيء كن فيكون ..

قال أبو العبر يطمئن الخليفة :

– سآتيك بمن يعوضك حضوره عن كل غائب وتسلّيك مجالسته عن كل المتاعب .. جدّه هزل وهزله جدّ ... ينتزع الابتسامة من شفاه الموتى .....

قال الراوي :

انعقد المجلس الثاني في الليلة التالية .... وقد بلغ أصحابه ما دار فيه من حديث وما حيك فيه من مؤامرات قد تصيب شظاياها بعضهم لكنهم قابلوها بكثير من الاستهانة واللاّمبالاة ... فهم أدرى الناس بعجز الخليفة ومواطن الضعف فيه والحدود التي لا يقدر على تخطيها ماداموا ممسكين – ولو من بعيد – بقياده السلس .. لم يكن بمجلسهم غناء أو طرب .... ولم تكن الجماعة ممن تحفل بشيء من الموسيقى أويهزّها اللحن البديع والصوت الرخيم ..حسبها الاهتمام بالشراب والنساء والضحك ولغو الحديث .... وعقد الصفقات ..

تسنّم جميعهم ذروة الكهولة .... وفيهم من جاوزها مطلاً على الشيخوخة ولكنهم ما ازدادوا مع الأيام إلاّ شبقا وإيغالا في طريق من الشهوة لايعرف حدّا ولا نهاية ...

قال أحد الأتقياء بالمدينة وقد تردد ذكر ما يأتيه هؤلاء في مجلسهم " لكم ظلم الناس الشباب وقالوا فيه ما لم يقله مالك في الخمرة ... وعدّوه مفسدة للمرء ... أي مفسدة .. ونسوا هذه الكهولة المريضة ... التي هي أحق بالإدانة والاتهام ... لكأنّ صاحبها في عجلة من أمره وقريباً يودّع الدنيا فتنتابه رغبة جارفة في تذوق ما فاته من مباهج الدنيا وصنوف المتع واللذات حتّى إذا بقيت واحدة على الأرض ظنّ أن لها طعماً غير الذي ذاق ...

عاد مجلس الخليفة إلى الانتظام ومثل النديم الجديد بين يديه .... قال له وهو لاينقطع عن مداعبة شاربه الأشقر :

– أما كنت تزورنا قبل أن ندعوك ؟

– الشوق شديد والود عتيد والبواب فظ والحاجب صعب ... فلم يكن إليك من سبيل ....

غنّت أناهيد أصواتاً جميلة اهتزّ السامرون وذابوا – معها وفيها – وجدا واهتياجا وأسرتهم براعة الأداء وسلاسة اللحن ورشاقة الإيقاع ... وطاف أبو العبر بكؤوس الشراب فاكتملت النشوة وتحررّت الأنفس من كل قيد .... وأرسلت النوادر والملح وحكايات الظرفاء ... قال النديم الجديد : " كنا ذات مرّة نشرب خمرا بظاهر المدينة فمرّت بنا أعرابيّة فسقيناها من شرابنا فلمّا عملت فيها سَوْرته قالت لنا : " نساؤكم يشربن هذا ؟ قلنا لها : أجل ، قالت : " إذن فو الله ما يدري أحدكم من أبوه !"

عادت أناهيد إلى العزف والغناء بطلب من الخليفة وكان حريصاً على المراوحة بين اللحن الجميل وحلو الحديث مجافاة للرتّابة والملل... وكان أبو العبر قد استخّفه الطرب وأغراه الشراب بالخروج عن طوره فاستأذن الخليفة في الغناء بمصاحبة عزف من أناهيد ، فأذن له الخليفة ضاحكاً وهو يعلم أنه لايجيد قليلاً أو كثيراً من الطرّب ، فارتفع صوته نشازا كالنهيق أو غرغرة المحتضر لكنه استطاع أن ينتزع الضحكات العالية من الجميع .. وقد تطلب الغايات بالسعي إلى أضدادها .... قال أحد الظرفاء عندما سأله الخليفة رأيه في ما استمع إليه :

– أرى في هذه اللحظة بومة تموت ...

– كيف ذلك ؟

– ينعق البوم في اللحظة التي تقبض فيها روح إنسان ... وإذا نعق الإنسان بمثل صوته فلا شك أنّ بومة قد ماتت ... ألا فاتقوا اللّه في البوم ... ولا تعاونوا على إفنائه " .

قال الراوي "

تجدّد أغنى الأغنياء .. أو مجلس أدنى الأدنياء كما ينعتهم الخليفة وأصحابه ..وانتقدوا سياسة الخليفة وتفشي الرشوة وفرض الجديد من الضرائب والإتاوات حتّى .. بات الناس يلهثون وراء أسباب عيشهم فلا ينالونها إلاّ بجهد يقطع الأنفاس وقد روى " الرقاشي " أمين التجارة أن الخليفة يفكر في فرض ضريبة استثنائية على سكان إحدى المناطق لالشيء إلاّ لأنّ أرضها خصبة معطاء وماءها عذب زلال ... قال لهم ذات مرّة مؤنّباً :

– أتدرون أنّ الحمار في أرضكم يشرب في اليوم الواحد بما يفوق عشرة دنانير ثمنا للماء العذب الصافي ممّا يباع في زجاجات معلّبة !!

أجابه أحد المزارعين :

– ما ذنبنا إذا كانت دوابنا سعيدة الحظ .. تشرب مثلنا ماء زلالا ؟ هل نشتري لها الملح ونمزجه به لتشربه أجاجا؟!

وقال آخر في سرّه :

– لا غرابة أن تفرض علينا غدا ضريبة جديدة على الهواء النقيّ الذي نتنفسه ..

مع رنين الكؤوس واكتمال النشوة ازداد المجلس أنسا وبهجة ورأى " الرقاشي " أن يوجه دفة الحديث إلى موضوع جديد خطر له الساعة والتمع في ذهنة .. قصّ على أصحابه حكاية الشمس والريح اللتين تراهنتا على نزع ثياب رجل .. وابتدأت الريح المعركة وعصفت بقوة فاحتمى الرجل بجدار عال وزرّر ثيابه وشدّد قبضته عليها ... وأقرّت الريح بعجزها عن نزع ثوب الرجل ... وجاء دور الشمس فأرسلت أشعتها ساخنة ثم لافحة فتفصّد الرجل عرقاً وبدأ يتخفف من ملابسة حتى خلعها كلّها ونزل إلى النهر يتبّرد .. وكسبت الشمس الرهان ...

سأل أحد المسامرين :

– ماذا وراء هذه الحكاية .... يا رقاشي ؟

– أنا الشمس .. ومن منكم يقبل أن يكون الريح ؟

– وما مدار الرهان ؟

– حلق شوارب الخليفة ... أنا أفعل ذلك في ثلاثة أيّام

ولم يكد المجلس ينفضّ في آخر الليل حتّى أبرم اتفاق الرهان بين " الرقاشي " والشيخ سعدان كبير المزارعين على أن تكون متجر الزرابي لقاء ضيعة الرمان عند الكسب وشهد الحضور على ذلك مصدّقين ..

أطلّت أناهيد على المجلس كما يطلّ القمر تألقاً وسناء وبدت في هذه الليلة كما لم يرها أحد من قبل أناقة ونقاء لون وأتمّ زينة ... وقد زادها الثوب الحريري الشفاف فتنة طاغية وسحراً يخطف الأبصار .. يوقظ الغرائز التي ماتت وشبعت موتا... اتخذت مجلسها قرب الخليفة ونطقت ملامحها بحديث بدت حريصة على البوح به قبل أن تبدأ السهرة .. قالت :

– رأيت في منامي البارحة حلما لا أدري كيف أصفه لكنه كان واضحاً جليّاً كفلق الصبح ... رأيت فيما يرى النائم أنّ الخليفة انهال على وجهي تقبيلاً حتّى أدماني شارباه .. واسترضاء لي قرر حلقهما في حين ... وقد قمت أنا بهذا العمل الذي أعجبني كثيراً .... آه ياسيدي الخليفة كم كنت وسيماً ورائعاً في الحلم بلا شوارب ! ... لقد عاد بك الزمن إلى الوراء عشرين سنة ... ثمّ رأيتني أغنّى لك أغنية جديدة أطربتك ... وعندما استيقظت من النوم حرّكت بالأغنية لساني لأعجل بها مخافة أن أنساها .. ومن عجب أنني لم أنس منها شيئاً كلمة ولحنا ... أتريدون سماعها ؟ ودون أن تنتظر إجابة من أحد أمسكت أناهيد العود وداعبت أوتاره فانطلق النغم رخيماً شجياً وراحت تغنّي :

شنب الخليفة أشقر	منه يفوح العنبر
لكنه في وخزه	كالشوك إذ يتكسرّ
ليت المحبّ يزيله	وعليه لا يتحسّر

تعالت صيحات الإعجاب وهلّل الساهرون .. ووقعت الأغنية من نفس الخليفة موضع الرضا والارتياح ... فلم تحتج أناهيد إلى كبير عناء لإقناع الخليفة بحلق الشاربين ليكون أجمل وأروع وأكثر شباباً ... ولم تزل تحاوره وتداوره وتغريه وتهوّن الأمر عليه حتى اتخذ قراره الخطير :

– لتذهب الشوارب إلى الجحيم ...تعاليْ معي ...

ودعا أناهيد إلى المقصورة وبها قضى منها وطرا بعد أن حلقت له الشاربين بنفسها .. تماماً كما رأت ذلك في الحلم .. وعندما خرجا من المقصورة لم تصدّق أناهيد ومن معها أن شوارب الرجال إذا أزيلت يمكن أن تغيّر ملامحهم إلى هذا الحدّ .. فكادوا ينكرون هيئته الجديدة .... ولعلّه أنكر نفسه أيضاً ...

قال الرّاوي :

في اليوم الذي ظهر فيه الخليفة بلا شوارب ورآه الناس التقى الرقاشي بالشيخ " سعدان " بمكتب عدل الاشهاد .... شربا هناك القهوة والشاي بالنعناع وتبادلا ألواناً من الحديث في مودة وسماحة نفس .... وقبل أن ينصرفا وقعا بدفتر العدل الذي خط فيه ما يلي : " باع فلان لفلان .. ضيعة الرمان ... معروفة المكان ... بالثمن الذي اتفق عليه الطرفان .. بيعا صحيحاً تاما ناجزا .. لا خلل فيه ... ولا شيء يعتريه .. من جميع نواحيه ..؟"

□□

حدث ذات ليلة

قصة: الناصر التومي

أسدل الليل سواده على القرية، وتلألأت الأنوار بالدور المتناثرة وسط غابات الزياتين المهيمنة على امتداد البصر

من المغيب وهي داخل باحة الحوش، لا تفتأ تطل خارجه في كل الاتجاهات، ولا تستقر بمكان، وقد أخذ منها الهلع كل مأخذ، وأسرعت واضطربت دقات قلبها، حتى إذا ما ضاق بها المكان، اجتازت مدخل الحوش إلى خارجه ترتعش من الخوف والصقيع.

منذ أيام وهي مضطربة لا يهدأ لها بال، والأحقاد تكتسح بيتها لتضع ابنيها في مواجهة بعضهما، بين عمدة القرية والطالب بكلية الطب، واستشعرت من تبرمهما ببعضهما أن زلزالا يهدد بيتها في أي لحظة. وهي لا تزال تتذكر يوم توديعه منذ خمس سنوات للالتحاق بالجامعة وليس لها من زاد غير بعض النصائح

– يا ولدي لا تهتم إلا بدراستك ... لن تنفعك غير الشهادة.

يومها احتضنها وبكى وهو يردد

– سآتيك بها يا أمي لترفعي هامتك بين الخلق....

والسيارة تبتعد به وتختفي وراء الأكمة حيث تلتصق الأرض بقبة السماء استقر بصرها بالأفق لوقت ليس بالقصير.

سكنت الحركة إلا من نباح الكلاب ونعيق البوم بين الحين والآخر، وكلما تقدم الليل ازدادت خوفاً ، أخبار ابنها الطالب لا تسر ، لقد انساق في تيار احداث الشغب بالجامعة وتنظيم المظاهرات، وقد تعبت معه، ناشدة منه الاهتمام فقط بدراسته، كما يئس شقيقه عمدة القرية بدوره من إرجاعه عما انجرف فيه.

ومما كان يرهقها أكثر ويذهب عن عينيها النوم القطيعة التي سادت بين الشقيقين بعد تشبث كل منهما برأيه إلى حد المواجهة.

وهي لم تنس يوم كشف كل منهما عما يعتمل في صدريهما نحو بعضهما، يومها اقبل العمدة على البيت مغتاظا وشرع يقلب في مكتبة شقيقه حيث اختلطت كتب وكراريس الطب بالكتب السياسية والثورية والفلسفية وانفلت لسانه موجها كلامه إليها:

– لو واصل دكتورك في هذا الطريق فلن يصير دكتورا

قالت يومها له في مسكنة الأم التي سمعت ما حطم آمالها كلها:

–شقيقك ناجح في دارساته، فما الذي يمنعه من أن يصبح دكتوراً...؟

فأجاب وهو لا يستقر في مكان ولا يأخذ له مجلسا:

– الأمر لا يتعلق بما تقولين، بل بما تحتويه هذه الكتب وهي تسلب منه اختياراته.

وقالت في حيرة وهي تلتفت إلى المكتبة:

- يا ولدي لا أفهم ما تعنى... وما ذا في هذه الكتب

- فيها الكثير .

وظل يقطع الغرفة جيئة وذهابا إلى حين عودة صغيرها الذي بادرة بالتحية فلم يرد عليه الأكبر، بينما كانت الأم تتوجس صراعا بينهما لا تأمن خاتمته، وتكون هي أول مصطل به ، ولم يطل انتظارها حتى انطلق الأصغر في العتاب:

- كان عليك أن ترد التحية

وحاولت الأم تهدئتهما قبل احتدام النقاش:

- لماذا لا تطيقان بعضكما مع أنكما نزلتما من رحم واحد

وخرج الأكبر عن صمته موجها كلامه إلى أمه دون أن يلتفت إليها:

- أنا خائف عليك منه...

فأجابت وهي تقلب البصر بينهما في لهفة على مع معرفة مقصده:

- ما الذي تخافه عليَّ منه، فهو ابني وفلذة كبدي مثلك أنت تماما....

- أخاف أن يزين لك أشياء تسيء إليك

- أي إساءة تعني يا بني أنا لا أفهمك...؟

-أن يميل رأسك إلى جانبه

قالت وقد ارتاحت لكلماته الأخيرة

-لا يا بني فأنا أمكما ولن أتغير مهما اختلفتما فأنتما أبناي ولا بد أن تتصالحا يوما

كان الأصغر قد أخذ كتابا وشرع يتصفحه بشبه عصبية لما خطا الأكبر نحوه خطوات سريعة مختطفاً منه الكتاب قائلاً في حنق:

- من الخسة أن تراني بعد أشهر ثم تتلهى بتصفح كتاب

- أليس ذلك أحسن من جدال ينتهي بخصام

- الواجب يدعوني لحماية هذا البيت من شذوذك

- أي بيت تعني البيوت كثيرة ، بيت الأم أم بيتك أم بيتي.

وصرخ الأكبر وهو يلوح بالكتاب بعيدا في أقصى الغرفة

- صدقني فلو واصلت في هذا الطريق فلن تفلح.

- أنت تركيبة غريبة، لا يعنيك هذا البيت كما تدعى ولكن تتحرك لإرضاء مصلحتك الخاصة، وتقوم بهذا الدور لغاية في نفسك.

- أنت في حاجة إلى التأديب .

وامتدت يدا الأكبر تشدان شقيقه من ثيابه، وتدخلت الأم بينهما باستعطاف:

-أي ولداي رحمة بي

وانفلت الأصغر من قبضة أخيه إلى الخارج وبقي الأكبر يتهدد ويتوعد

تهاوت الأم على أول مقعد وهي تشعر وكأن الأرض ستميد من تحتها، وألقت نظرة على البيت فإذا هو خواء موحش، وانتابها هاجس مخيف ، عرفت شبيهه فيما مضى من الأيام ، وذاقت من ويلاته يوم كانت هذه القرية نهبا لكل من هب، وأحست وكأن البيت يضيق بها، فتختنق بأنفاسه، فخرجت إلى الحوش ورفعت رأسها إلى أعلى. كانت السماء قد فقدت زرقتها بعد أن امتدت سحب دكناء، وهبت رياح قوية فاضطرب كل شيء، فولت الأم أدراجها تغلق الباب والنوافذ وتتنبأ بالعاصفة.

مرت ساعات وهي بين مدخل الحوش والمسرب الصغير جيئة وذهاباً ، وأذن لصلاة العشاء من مسجد القرية الوحيد، ومر قطار المسافرين، وتلاه قطار السلع معلنا عن مرور الثلث الأول من الليل، واشتد خوفها وهي تنتقل من مكان إلى آخر دامعة العينين، بينما كانت حواسها منتبهةً لصدى الأصوات، واكتسحتها تخمينات مفزعة.

يوم الخصام الأكبر ومغادرة ابنيها البيت هرعت تجوب القرية بالطول والعرض، تسأل أصحاب الرأي والمشورة عما يجب القيام به لعودة الصفاء إلى بيتها.

قال لها إمام المسجد:

– خففي من روعك فسوف لن يقع إلا ما قدره الله.

وقال لها مدير المدرسة الابتدائية.

– سيحسم الأمر بأي شكل من الأشكال وبأي حال من الأحوال.

لم يشف غليلها أي طرف، فاقتحمت الدور والدكاكين لسماع نبأ سار ، فما أسعفت بالرجاء.

قال لها أحدهم بخبث مستهزئا:

– أنت محظوظة لو فقدت الدكتور فسيبقى لك العمدة ولو فقدت العمدة فسيبقى لك الدكتور.

فصرخت في وجهه بلوعة:

– ولكنهما ابناي مهما كان اختلافهما واستغرب من أمرهما مع أن الأرض تسعهما معا

وقال أخر:

– لن تستطيعي جمعهما تحت سقف واحد إلا بتوبة أحدهما

وقالت في حسرة:

– ما الذي وقع وقد عشت مع أشقائي السبعة أعواما في بيت واحد

فكانت الإجابة من أحد الجالسين:

– ذلك زمن وهذا آخر ملعون

كان قد مضى ثلثا الليل عندما أطلت على زريبة الأغنام، ورفعت رأسها إلى حيث ارتقت الدجاجات كومة الحطب لا للاطمئنان عليها ولكن لتنفض من مخيلتها المشاهد والكوابيس وما تعانيه من حرقة ، لكنها سرعان ما عادت إلى مدخل الحوش من جديد. ولما أحست بالعياء جلست القرفصاء، مركزة بصرها الضعيف على الجهة المؤدية إلى الطريق الكبيرة، وكلما خففت سيارة من سرعتها ازداد رعبها.

كان كلما عاد إلى الدار في العطل لا تفتأ تذكره بوصيتها الوحيدة، بألا يفكر إلا في مستقبله ، وكانت أول ما تبحث عنه بين متاعه الميدعة البيضاء ، فإذا وجدتها ضمتها إليها تلثمها وتضمها إليها متأملة في أجزائها بدهشة وانبهار.

أثناء العطلة الأخيرة صار يستقبل بعض زملائه من الطلبة وأصدقاء من القرية وخارجها ، ويخوض معهم في حوار لا تكاد تفهم منه شيئاً سوى بعض العبارات كالظلم والعدالة، وتلاحظ حماسهم الشديد، وتجرأت يوما فقالت لابنها:

- يا ولدي لا تضيع نفسك بهذا الكلام

وتذكرت قولة عمدة القرية السابق الذي عمر طويلا فأعادتها على مسامعهم:

- وماذا تريدون أكثر، التعليم والحياة الهنية والأمان التام، في أيامنا الأولى ما كنا نحلم بشيء من هذا....

ولم ينبس أحدهم بكلمة ، وتراجعت إلى مجلسها في قعر الغرفة تطهو الشاي وهي تغمغم:

- سيضيع الولد بهذه الأقوال

والمدينة تبتلع الدكتور من جديد في سنته الخامسة علمت أن المظاهرات الطالبية على أشدها، وعدت في البداية أن الأمر مجرد تهويلات لكن لما لم يعد إلى البيت بعد إغلاق الجامعة ، أيقنت أن الخطب قد مس بيتها وتمنت السلامة.

انقطعت أخبار الدكتور عنها، فسألت عنه، وكانت الإجابات متناقضة من أهالي القرية.

مرّ رتل الرابعة صباحاً وهي منكمشة أمام الحوش، لقد أعياها الانتظار وهدها التعب، فكانت جفونها تغمض دون إرادتها، لكنها سرعان ما تفتحهما مذعورة ، وتلقى نظرة في كل الاتجاهات ثم ترفع رأسها إلى أعلى تتمنى الفرج ، بينما خوفها يتضخم، بين الفينة والأخرى.

كانت السحب تتسل من سماء القرية متفرقة فتظهر بينهما النجوم متلألئة بين الحين والآخر فتتفاءل الأم بظهورها وتتشاءم بأفولها ، حتى استقر بصرها على هضبة القرية، حيث تلتحم بها قبة السماء، وتنحدر منها الطريق الكبيرة، ومنها تظهر هالة الفجر.

أحست بخطوات تقترب منها، أرادت الانتصاب واقفة فلم تفلح، لقد تجمدت أطرافها من الصقيع ، تقدم منها العمدة فساعدها على الوقوف ببطء قائلاً في تأثر كبير:

- أماه أريحي نفسك وأريحيني

وهو يدفع بها إلى البيت كانت تارة تتحسس وجهه وتتفرس فيه بحنو وشوق ، وتارة تطل إلى الطريق إلى حيث ضياء الفجر.

□□

المتقاعد

قصة: حمّودة الشريف كريّم

كنا أربعة سالم وفرحات والشاذلي وأنا، وكنا متلازمين، نجلس كل مساء في مقهى الباجي، نتحادث ونثرثر ونستمع إلى حكايات سالم الممتعة، وذات يوم تحادثنا في شأن المتقاعد، ومايلاقيه من ألم نفسي، نتيجة الفراغ، الذي يشمله، والحياة الروتيبة التي يعيشها، واقترحوا عليّ أن أرسم صورة متقاعد كما أتخيلها وخصوصاً حياته اليومية والنفسيّة فرحبت بالفكرة.

عندما اختليت إلى نفسي إلى البيت، حاولت أن أتخيل الصورة، فوجدت صعوبة، لأني سأكتب ما يشبه السيرة الغيرية فعلّي أن أتفهم الظروف، وأستجلي الحالات النفسية، وأنبش الماضي، ومافيه من أسرار وطفقت أقلّب الأمر على وجوهه وانتهيت إلى الصورة التالية.

كان قصيراً، ضخم الرأس، أقرعه، أكولاً، يحبّ العطر، أحيل على التقاعد منذ خمس سنوات، يخرج صباحاً من بيته ويتجه إلى المقهى، وينزوي في ركن، يحدث نفسه بصوت كأنه الهمس ولكنك إن أنصت إليه، تنساب إلى سمعك غنة حزينة، وفي بعض الأحيان يطلب من النادل جريدة ولوقديمة فيتصفحها، ويقرأ أوّل مايقرأ صفحة حظك اليوم والبقاء للّه.

ورغم مايبدو عليه من الانطواء، والانغلاق فإنك إن جلست إليه تجده متبذّلاً في كلامه، مهذاراً، ويحدثك عن حياته، وتشعر كأنك تشد إليه شدّا، فإذا أنت مستمع، منصت وإذا هذيانه لا يشعرك بالسأم والملل، وإذا أنت في رحلة ممتعة يحملك فيها على أن تتخيّل مالاقى في صباه من صعوبات، وما وجد من عراقيل، كادت تفضي به إلى الإحباط ثم يعرج بك على وظيفته، وكيف عمل بجد ومثابرة وكيف ضحّى، ولكن الحظ خانه فإذا هو في أسفل الدرجات إلى أن تقاعد، كما أنّه لايخفي عنك قصة زواجه، فقد زهد أولاً في الزواج لأنّه أحبّ ولكن الظروف العائلية كانت حاجزاً دون تحقيق حلمه، فقرر أن يتزوج، ولكن الصدفة في آخر العمر لعبت دورها فتزوج وكان سخياً في عطائه، متبذّلا، ليفقأ عيون الشامتين.

ويتواصل حديثه فإذا هو يخبرك خبر زوجته وعلاقته بها، فقد تزوجها على كبره وهي صغيرة ولكنها كانت تحبّه لا لما يبذله لهامن نفقات وإنّما لقدرته الخاصة الفريدة.

ولم أتحدث عن علاقاته الاجتماعية، لأنّه لا روابط له، وحتى صلات القرابة، قطعها، فحياته معلومة، معروفة، يخرج من البيت صباحاً ويرجع إليه زوالاً ثم يخرج ظهراً ويرجع إلى ليلاً، وهو في كل الحالات إمّا في ركن من أركان المقهى أو في البيت منزوياً، لا يحادث زوجته ولا يجلس معها أمام التلفاز، وكانت هي لا ترغب في محادثته أو معابثته، وحتى ابنهما الوحيد "سامي" كان يعيش حياته الخاصة ولا يفاتحهما في شؤونه، فقد كان يقبع في بيته بين التلفّاز وآلة التسجيل وقد انقطع عن مزاولة التعلّم، فكان يشعر بغربة نفسيّة.

أنت تصف حياتي العامّة، وتنقل ما اتحدثه، وتلاحقني في المقهى وفي الشارع وتصف ماهيتي، كل هذه الأحاديث لا تزعجني، عندما حدثتك عن حياتي الخاصة، خصوصاً زوجتي وعلاقتي بها، كنت أعتبرك صديقاً، خصوصاً أن العلاقة التي ربطتني بك طالت مدّتها وامتدت، فجلوسك إليّ لم يكن أساسه المودة، وإنما كنت تخاتلني لتكشف سرّي وتخترق حجبي وتنتهك حرمتي .

أنا لم أعاشرك، ولم أتحدث إليك، ولم تتحدث إليّ، وفي وصفي لم أقصد شخصاً بعينه، والصدفة هي التي جعلت الشخص الذي تخيلته يشبهك، ولست أنت المتقاعد الوحيد الذي يكون شخصية قصة "وال" في كلمة متقاعد تفيد الاستغراق.

أصدقاؤك الشاذلي وفرحات وسالم هم الذين حدثوك عن حياتي، وهي من وهم خيالهم لأنهم يحقدون عليّ، خصوصاً سالم فلي معه عداوة ومشاحنات، منذ أيام الصّبا، وسوف أشكوه إلى العدالة، وما كتبته أنت حجة عليه وإن لم يرتدع فبالعنف أقتص منه وأنت تدّعي أنك لم تعاشرني، والشجاعة تقتضي أن لا تتخفّى وراءه...؟ كيف عرفت أني أعيش على هامش الحياة...؟ ولماذا جعلت حياتي بين البيت والمقهى ولا تتجاوزهما؟ ولماذا جعلتني في المقهى في ركن وأنا أهذي؟ فقد صنعت مني إنساناً شاذاً، وأنا أفهم من رسم حياة متقاعد بهذه الصورة أنك تريد أن تقول للناس: إن هؤلاء المتقاعدين منطوون على أنفسهم لأنهم يشعرون أن الحياة نبذتهم وأنهم أقرب إلى الموت منهم إلى الحياة، ولذلك تكون علاقتهم بالناس علاقة يسودها الفتور.

وماهي حجتك أن علاقتي بزوجتي متوترة، ومن أين لك ذلك؟ إن علاقتك بزميلي البشير المتقاعد هي التي أوحت لك بمثل هذه الأفكار، فهو يحاول أن يدنس شرفي، يبث بين الناس إشاعات تنتقص من قيمتي، وقد أوهمك أن علاقتي بزوجتي علاقة يسودها الفتور، لأنني أكبرها سناً، وأنا أعلمك أن علاقة الزوج بزوجته لا ترتبط بالسنّ فالفحولة هي التي تحكم سداها.

توقفت عن الكتابة وألفيت نفسي في حرج، فمنذ البداية تكون علاقتي متوترة مع شخصية قصتي، وهذه الشخصية أنا التي خلقتها، فكيف يكون الأمر لو كانت حقيقيّة؟ والراوي الذي روى قصتها هو من خيالي أنا، إذا فمنذ البداية كان التعقيد، ومحاولة المراوغة.

تجاهلته وتفاديت محاورته، وقررت أن أواصل الكتابة، وأن أهتّم بزوجته، ربة منزل، وشابة، طرية العود، تعمل من أجل إسعاد زوجها، وتطلب رضاه، وهو الوحيد في حياتها، تفني العمر من أجله، ومن أجل أبنهما سامي، وهي قانعة، راضية تشكر الله على هذه النعمة.

كيف تكتب هكذا..؟ تعتمد الخيال في قصتك، ولا تحاول أن تتعرّف على الشخصيّة، لتفهم ظروفها، وتطلع على معاناتها، وكان الأجدر بك أن تسألني أنا لأطلعك على الواقع، وبالواقعية تقترب من الحقيقة، إن جمال القص يكون منطلقه من الواقع وأنا أستسمحك أن أقص عليك قصتي حتّى لا يقع التزوير وأصدقك القول في كل ماأروي.. فأنا تزوجته ولما أبلغ العشرين، أحلم بعالم مثالي، وعندما خطبني محسن لم تكن تبدو عليه علامات الكبر، وأبي سامحه اللّه لم يتح لي الفرصة حتى أتعرّف عليه، والطمع هو الذي جعله يتصرف مثل هذا التصرف، فمحسن كان موظفاً، وأبي كان عاطلاً عن العمل، وكان محسن سخيّاً، وكان أبي يشعر بالرّضى، ويجد راحة نفسيّة في هذه الهدايا، وأنا كنت غريراً، لم أنتبه لما ينتظرني، وكانت بنات الجيران يحسدنني على هذه النعمة.

وصعقتني الحقيقة، فإذا بي أجد زوجاً أشرف على الخمسين، قدنهشته الأمراض، يعاملني معاملة خادمة ويخدعني مع امرأة اسمها سعاد في مثل سنّة، تعمل معه، وقد أطلعتني على الحقيقة فاطمة زوجة جارنا محمود الذي يعمل معهما، وقالت إنهما كانا عشيقين وينويان الزواج، ولكنّ العداوة بين أهليهما أفسدت المشروع فتزوجت صالحاً على كره، ثم تذاكرا العهد عندما أصبحا يشتغلان معاً.

وأنت تتحدث عنّي وكأنّي بك تريد أن توهم القارئ بأنك عالم بمابيني وبين زوجي، وهذاخطأ فخيالك لم يرق إلى معرفة أسرارنا، وأنا أقول لك الحقيقة، فليس هو الوحيد في حياتي كما تخيّلت أنت، لأنك بنيت خيالك على أني كنت ربّة منزل ولم أتعلّم كثيراً ولم أعاشر الشبان، فالقصة ظاهرياً في غاية البساطة في خيالك أنت، أمّا ماشعرت به أنا من ألوان العذاب النفسي فهو يفوق ماتخيلته أنت، فقد زففت إليه وأنا لم أبلغ العشرين، ومنذ الليلة الأولى كرهته فقد عاملني

معاملة حيوانيّة، وبطول المعاشرة كان يراوغني، ويحتال علي، ويخفي عني أسراره ولم يشركني في حياته، فتصدعت العلاقة بيننا وأخرجته من حياتي العاطفيّة، لأن جسدي يناديني.

نبهتني الساعة الحائطية إلى أنها الثانية صباحاً، فانزعجت لأنني سألتحق بالقطار في السابعة حتى أكون في الشغل في الوقت المحدد لأن رئيس الإدارة أصبح يحاسبني على الدقائق، ورغم تذمر الموظفين، وما كتبوا من لوائح منددين بذلك، لأنهم يسكنون في مناطق بعيدة، ووسائل النّقل كعادتها لا تصل إلاّ متأخرة فإنّه أصرّ على موقفه.

حاولت أن أنام قليلاً، ولكن أحداث القصة شدتني إليها، وكأني أعيش مشهداً واقعياً، ولما نبهتني مريم زوجة محسن إلى العلاقة الغرامية التي تربط زوجها بزميلته سعاد، فكرت في أن أستحضر ماضيهما وأتحدث عن هذه العلاقة، بعاطفة متأججة وخيال خلاق، وطفقت أتخيل هذه العلاقة في بدايتها، ووجدت صعوبة في التخيّل، وحاولت أن أتذكر سير العاشقين، وغرام المحبيّن، وطرق الباب ثم انفتح فإذا امرأة فارعة الطول قد بدت على ملامحها سمات الكهولة، رغم ما وضعته من مساحيق على وجهها، وانتابتني الدّهشة فقد تعرّفت عليها بسرعة.

أنت انسقت مع كلامها، واستطاعت أن توهمك بذلاقة لسانها، وهذه هي عادتها، ورغم جهلها فهي محدثة بارعة، وكذوب، ومشكاك، وتزور الحقائق، وهي تصدق الإشاعات بسرعة وتهولها، وأنا أقص عليك القصّة وأرجو أن تكتبها بكل صدق وأمانة.

علاقتي بمحسن قديمة قدم وجودنا في حيّ واحد وقد تعاشقنا كشأن كلّ شاب وشابة استجابا لعاطفتيهما، ولكنها علاقة بريئة، وأحبني وأحببته وتعاهدنا على الزواج، ولكن الظروف هي التي حالت بيننا فتباعدنا على كره، وتزوجت أنا "صالحاً" أمّا هو فقد أفنى عمره في العزوبيّة ثم تزوّج "مريم" وهي تصغره سناً، وعجز زوجي عن العمل إثر مرض ألمّ به وأصبحنا نعيش الإملاق، فتدخل محسن لدى رئيس الإدارة لأكون عاملة بسيطة، وشكرت له معروفه، وعلاقتنا هي علاقة زمالة، أمّا ماتدعيه زوجته من أننا عشيقان فهذا اختلاق منها، لأنّها من الممكن أن تعيش جدباً عاطفياً، وهذا مالا أستطيع أن أثبته لك لأنّه سرّ بين زوجين، وأنا لا أتدخل في حياتهما العاطفيّة.

الثانية والنصف بعد منتصف الليل وأنا أعيش حيرة، قصة من سأكتب؟ فقد اختلطت الأمور، وأضحت تتعقّد، فبعد أن كنت مهتماً بمحسن المتقاعد وأصوّر حياته اليوميّة إذا بالأمور تتشعب وأصبح في حوار مع زوجته ومع سعاد التي اقتحمت عليّ البيت فأين الحقيقة وكيف سيكون مسار القصة.

لا تغضب سيدي، فأنا مطلعة على الأسرار وأعرف خبايا الأمور، لأنني أسكن في نفس الحيّ الذي يسكنان فيه بل في نفس الزنقة ومنزلي يتوسط منزليهما وأنا مطلعة على مايدور بين محسن وزوجته وهي لا تخفي عنّي شيئاً وأنا أعلم مايجري بين محسن وسعاد لأن زوجي محمود يعمل بنفس الإدارة ويراقبهما وفي الليل يحكي كل مايدور بينهما وأنا أقترح عليك أن تكتب قصتي فهي واقعيّة، تروي الحقيقة بالضبط.

أمّا قصة محسن مع زوجته مريم فهي مؤلمة، لأن علاقتهما متصدعة، وهما يعيشان غريبين عن بعضهما، رغم مايظهر عليهما من وفاق، وقد حدثتني عن سرّ خطير لا أستطيع أن أبوح به لأنّه ليس من المعقول أن أكشف علاقاتهما العاطفيّة وهي زوجة رجل وأنا صديقتهما، وقد أخبرتني أن زوجها محسناً على علم منذ الليلة الأولى، ولكنّه رضي بالواقع خوف الفضيحة، خصوصاً وهو موظف والشامتون كثر، وقد استحلفتني عديد المرات أن لا أكشف سرها وكيف لي أن أخون صديقتي، وأفضحها، وأنا أمينة عواطفها وحافظة أسرارها.

أما سعاد فهي صديقتي، وأزورها كثيراً، وأحادثها، وتفتح لي قلبها فتحكي لي مشاكلها ومشاغلها، وهي ابنة عمي دنيا وأن كانت تكبرني سنّاً فإن ذلك لا يمنع من أن تجد متعة في التحدث إليّ ، ولكني أعرف أنهاتخفي عنّي بعض الأسرار، مثل علاقتها بمحسن فقد تواصلت هذه العلاقة الغرامية إلى الآن وقد كثرت الإشاعات والأقاويل، خصوصاً عندما اتهم محسن وسعاد بقتله، وإن لم يوجد دليل، لكنّ كل الناس يتهامسون فيما بينهم ويتحدثون عن هذه الميتة

المفاجئة ويروون أنه عندما تأكد من هذه الخيانة حاول المسكين أن ينتقم ولكنه ذات يوم أدركته المنية في الشارع وإن لم

اطلع على نتيجة التشريح ولكنّ قلبي يخبرني أنّه مات مسموماً..؟ وأنهما سمماه حتى يخليَ لهما المجال، ويستعيدا ذكريات الماضي بعنف وكانت مريم تعيش ألماً وغيظاً وكوابيس مزعجة، وزوجي حدثني كثيراً عن علاقتهما وكيف كانا يقضيان أوقاتهما في الإدارة تغزّلاً وتعشّقاً.

نالني الإجهاد، وشعرت بدوار، ونهضت لألتجئ إلى الفراش ولو قليلاً حتّى آخذ قسطاً من الراحة، لأجد القدرة على العمل اليومي الذي ينتظرني في الصباح، خصوصاً وأني مكلف بكتابة التقرير العام عن ميزانية الشركة.

من فضلك سيدي أعرف أنك سهرت كثيراً، والراحة ضرورية لك، ولكن أطلب منك أن تسمعني قليلاً حتّى أوضح لك بعض الأشياء، حتّى تصحح بعض المعلومات، فأنا محمود زوج فاطمة أعمل بالإدارة التي كان يعمل بها محسن وتعمل بها الآن سعاد وقد حدثتك زوجتي عن علاقتهما وأنني أخبرتها بذلك فهذا كذب لأن زوجتي تتسقط الأخبار ثم تنسجها في خيالها وتنسبها لي، وأنا لم ألاحظ ريبة بينهما، ولم أسمع عنهما مايشين، وزوجتي تثير الفتن بين الجيران وتتقول الأقاويل، إياك أن تنقل عنها الأخبار فإنها كاذبة.

رغم الإنهاك الذي أصابني فإنني تقادرت وصبرت وتبيّن لي أنني لست بنائم، فالشخصيات تتناحر، وتخترع قصصاً، وكل يدّعي الصدق، وأنا منصت إليهما وكأني قاضي تحقيق، فهل الكتابة القصصية عدالة حتى تبحث صدق الخبر أو كذبه؟ نعم الصدق الفني هو الذي يجعل الكتابة مؤثرة، أما صحة الخبر أو عدمه فذاك لا يهمني شيئاً، وبهذه الفكرة استطعت أن أصبر على حكايات الشخصيات.

لا تصدق فاطمة في ماقالته، وزوجها شاهد على ذلك، فهو يعرفها، وقد سببت له مشاكل كثيرة مع أهل الحيّ، وقد طلقها مرتين ولولا المحافظة على قداسة رباط الزواج لما أرجعها، وهي مهددة الآن بالثالثة، وقد صادقت زوجتي وطفقت تبعث في نفسها الأوهام، حتّى أضحت تصدقها في ماتقوله لها، لأن زوجتي تنقصها خبرة الحياة، وخبث النساء، إضافة إلى ذلك أنها مشكاك، وغيور وهي تحبني وأحبّها.

وعلاقتي بسعاد هي علاقة حياة كاملة، أنا وزوجها تزاملنا طويلاً ودرسنا معاً وتربينا في حيّ واحد، وهو يعلم أن صلتي بها كانت بريئة، وإني وإن خطبتها سابقاً فليس معناه أن العلاقة كانت مريبة، وقد ساعدت صالحاً في مرضه، وأعنت سعاداً على العمل في الإدارة التي كنت أعمل بها، وصالح كان مريضاً وكانت الأزمات القلبيّة تنتابه من حين لآخر، وهذا هو سبب موته لا كما ادعت فاطمة.

الآن اتضحت الفكرة وانتهت القصة وبإمكاني أن أكتبها دونما لجوء إلى الخيال فالشخصيات مسارها واضح، وهي تحادثني وتكشف لي أسرارها دونما مواربة، تعبّر عما تشعر به بصدق، وتفتح لي صدرها دون تحفظ، وإذا توفرت مثل هذه العناصر فإن الكاتب غير محتاج إلى الخيال والتصور لأن التخيل تكون صوره فاترة باهتة لا حرارة فيها فأنا لن أقوم بمجهود يكفي أن أنقل

أحاديثهم وتصرفاتهم ومشاعرهم بذلك تكون القصة جاهزة، وأخلق راوياً يرويها وأنا أتخفّى وراءه وأوجهه حسب ما أريد دون أن أجعله يتدخل في تصرف الشخصيات.

مهلاً سيدي، أعرف أنك بحاجة إلى النوم، والتعب باد على ملامحك، وسامحني إن أطلت عليك، فأنا الآن عرفت صدقك، ولو لم تكن صادقاً في فنك لماسهرت إلى هذا الوقت، وأرى لزاماً عليّ أن أتمم لك قصتي حتّى تصبح لك فكرة واضحة، وتستطيع أن تتخيل ماشاء لك الخيال، وأن تدير الحوار كما تريد، فأنا تيتمت وأنا صغير، وكفلني أحد أهل الخير، وأدخلني المدرسة، وانقطعت عن الدراسة عند حصولي على الشهادة الابتدائية وبذلك أعفوني من الجيش وتحصلت على وظيفة وأحببت سعاداً وأحبتني وتعاشقنا وعشنا المراهقة، وتساقينا الهوى، وتواعدنا على الزواج ولكن عائلتانا كانت بينهما عداوة شديدة قاتلة، وفشلنا في حبنا، وتزوجت هي صالحاً، وعشت أنا البؤس والحرمان ونظرت

إلى المستقبل فإذا هو وحش، ففكرت في الزواج بعد فوات الأوان، وطال بي التفكير، وتشعبت السبل أمامي، من تكون العروس؟ إلى أن اهتديت إليها هي، ورأيت فيه المنقذ من الوحدة القاتلة، وظننت أنني سأعيش السعادة الزوجية التي طالما تحدث عنها النّاس ولكن منذ الليلة الأولى أصابني الإحباط، وأضحيت أعيش آلاماً نفسيّة قاتلة وفي لحظات اليأس أفكر في الانتحار.

وبعد الزواج كنت أشيخ بسرعة، وهي تزداد جمالاً ورونقاً، وكنت أحلم بولد يملأ البيت بهجة وحركة، ويشعرني بوجودي، وتجوّلت بين الأطباء والمتطببين والعزامين وطال ترددي، وخفت الفضحية لأن الرجولة لا تكون إلاّ بالإنجاب وصار أهلي وأهلها ينظرون إلي نظرة خاصة ذات معان، وشعرت أوّلاً بالإحراج ثم بالسخط ثم باليأس، وعيرتني بالعجز، وحدثت جارتنا فاطمة أحاديث كثيرة فأشاعتها في الحيّ، واندفعت في مسار لم أجد له دفعاً، وخامرتني شكوك كثيرة، وأزعجتني الكوابيس ثم قبلت الوضع مرغماً، وأنجبت ولداً ذكراً، فكانت الزغاريد وأنا المطعون الجريح أتظاهر بالفرح وأدّعي الرجولة والفحولة.

طال بي السهر ولكن قصته شدتني إليها، حتّى أضحيت أشعر بشعوره وأتألم لألمه، فقد صور عواطفه بكل صدق، وشعرت أني لست الكاتب الحقيقي فأنا مجرد حامل لعواطف غيره، ومصور فاشل لمشاعره، وأضحيت أتخيل أنا لو كنت أنا هو، فماذا يكون مصيري؟ وماذا يكون موقفي؟ وما أنا فاعل؟ وإذا كانت هذه الشخصية الورقية قد أثرت فيّ هذا التأثير فماذا يكون شعوري لو كانت من لحم ودم؟

بقيت حالماً واهماً، أعيش ألماً ذاتياً، وكأنني أنا المعني بالأمر، وأشفقت على محسن كما لو كان حقيقة، وذكرتني هذه الحادثة بما رواه لي صديقي فرحات المحامي فقد حدثني عن قضية باشرها مفادها أن شيخاً في السبعين أحبّ فتاة في العشرين، وأنه ضمها إلى بيته دون عقد زواج وأن حفيده أحبّها وأحبته وهربا خفية فانتحر الشيخ، وانكتم السر، وأصبحت هذه الحادثة كالأسطورة يرددها النّاس في كل المجالس.

من فضلك سيدي لا تصدق ماقيل فأنا الفتاة سميرة التي حدثوك عنها، والتي قضيتها حفظت بعد انتحار الشيخ، وهذا الفتى فؤاد هو ابن أخي، وأنت تستغرب الأمر، فذلك الشيخ كانت له علاقة سريّة بأمّي، وأنتجت هذه العلاقة ثمرة وهي أنا، وكانت ظروف حياتنا سيئة، ورحمة منه بي أسكنني منزله فعشت في سعادة وأحببت حفيده دون أن أعلم أني عمته وهمت به وهام بي وعندما علم الشيخ العلاقة التي بيننا، أخبرنا بالحقيقة فهربنا من واقعنا وانتحر هو، وحيكت الأسطورة كما أرادها الناس.اختلطت الأمور في ذهني وكثرت القصص، وتشابكت وضاعت حبكة القصة التي تخيلتها أولاً، وانتفى التّصميم، وأصبحت الشخصيات تعبث بي فكل واحدة تسلمني إلى أخرى، وأنا تائه لا أعرف المسار الحقيقي.

فاطمة ادعت أن زوجتي سعاد قد سممتني لتخلو إلى حبيبها محسن، هل أنا آخر من يعرف؟ أنا كنت أحبها وهي تحبني، وتحدب علي حدب الوالد العطوف على ابنه الوحيد، وتعمل وتشقى من أجل مداواتي وإطعامي، فأنا مريض بالقلب، وحالتي الصحية سيئة، وكان بإمكانها أن ترفضني من حياتها، وأنا أعترف أنها هي التي كانت تبعث في نفسي الأمل، فهل بعد هذا تخدعني؟ وهل لها الشجاعة لتعبث بشرف الزواج؟ ومحسن الذي كان يظهر لي الود والتحّنن هل يخون عشرتنا هو الذي جاهد من أجل أن يشغل زوجتي حتى لا نعيش في إملاق.

إن كانت فاطمة صادقة وإذا كانت هذه سيرتهما، وإذا كانا يتعاشقان ويخونانني باسم الأخوة والصداقة، فعليهما اللعنة إلى يوم الدين.

وأنا أستحلفك أن تكتب قصتهما وتشهّر بهما حتى يعرف الناس حقيقتهما، وتكون حجة عليهما لدى المحكمة.

أيّة محكمة....؟ حتى الموتى يتكلمون...! هذا لايكون في القصة، هذا هوس لابد أني أصبت بلوثة عقلية، كيف أتحادث مع الموتى، والقراء أنفسهم سيسخرون منّي... أيّ جنون هذا الذي يحدث...؟ أوليست شخصية صالح أنا التي

ابتدعتها من الخيال؟ فكيف لها أن تخرج من الورق وتطالبني بأن أكتب قصة؟ لابدّ أن هذه الأوهام هي من التعب الذي نالني، وعلي أن أتنحى عن الطاولة وأرتاح قليلاً في الفراش علّ هذه الهواجس والأوهام تبتعد عنّي.

حضرة المحترم، أنا سأشكوك إلى العدالة، لأنك تتدخل في شؤوني الخاصة، وتتجرأ على العبث بمشاعري، وتشويه سمعتي، وأنا موظف متقاعد، لي كرامتي، ولن أسمح لك أن تتخيل الأحداث التي تكون لصالحك، والخيال يعاقب عليه القانون، فبخيالك دفعت كل شخصيات القصة لتنال من شرفي، فأنت الذي ابتدعت شخصية فاطمة وجعلت منها جاسوسة على حياتي الشخصية وأنطقتها لتكشف السرّ الذي بيني وبين زوجتي، وتعرض شرفي إلى الدنس، وأنت صورتني في صورة ذلك الأبله الذي سرعان مايحدثك عن نفسه ويكشف لك أسراره ويتهم نفسه، وأنت الذي جعلت من زوجتي امرأة خائنة لا تحترم الميثاق الذي بيننا، وتتهافت على اللذة وكأنّها المحرومة، الجائعة، بينما أنا فحل والرسائل التي كانت بيننا عندما نقلت إلى باجة ظلما وعسفا أكبر دليل على ذلك فهي تضوع شوقاً وتلهفاً وقد أعزتني بين أهلي لأنها تحبني.

أبسمِ الكتابة تريد أن تنسب لي أشياء خيالية؟ وأنا أعرف أنك سوف تتحدث عن علاقتي ببائع قطع الغيار، وستتحدث عن الشركة التي بيننا فأنا دفعت له أموالاً لاستثمرها، ولكنه ماطلني وطفق يسوفني، فخضعت لأوامره وتذللت إليه وأصبحت أنظف الدكان، وأجلب له القهوة، وأحمل ابنه إلى الرّوضة، فعلت ذلك ذكاء مني لاسترجع أموالي وأعرف أنك ستقول إنه رغم كل ذلك فقد أنكرني وطردني من الدكان، فهذا صحيح ولكن يكفيني فخراً أنني حصلت على تجربة، وإن كان ثمنها باهظاً.

فرحت لهذا السرّ الذي لم أعرفه وازداد يقيني من أنه أبله، لايعرف كيف يتصرف في حياته الداخلية ولا الخارجيّة، فهو على علم بخيانة زوجته ويدعي الفحولة والرجولة ويوهم نفسه بأنّ أمره لم يفتضح وأن الناس لايعلمون ذلك، ثم هاهو يكشف عن بلاهته، وعن جهله بالمعاملة الاجتماعية وقررت أن أواصل كتابة قصته.

تأكد سيدي أن ما استنتجته هو الصحيح، ولا يذهبنّ بك الظن إلى أنه ذكيّ كما يدعي هو، فأنا فاطمة جارته، أعلم بشؤونه وأدرى بعلاقته الزوجية، فقد حدثتني مريم كثيراً عن حياتهما؛ فقد نبذته من حياتها العاطفية وهامت غراماً بشاب بادلها نفس المشاعر وهما يعيشان نشوة العشق وكانت ثمرة ذلك طفلاً اسمه "سامي" على اسم معشوقها حتّى تكون الذكرى مدى الحياة، وزوجها على علم بهذه العلاقة وهو راض لأنه يعرف مرضه، وقد استحلفها أن تكتم السر، حدثتني زوجته عن هذ العلاقة وقالت إنها تريد الارتواء، فقد ظمئت وهي سعيدة الآن لأنها تستعيد مراهقتها.

الفجر ينبثق من الشرق، وكأنه لهيب نار، والريح تعصف وتهزّ النوافذ، وأنا مستسلم لحكايات الشخصيات، ورغم التعب الذي أرهقني، ورغم ما ينتظرني من رئيسي فإنّي وجدّت متعة، وانتشيت بهذه الأسرار، وأردته أرقاً متواصلاً حتى الصباح.

أزعجتك القصة، وسهرت الليل كله، ومع ذلك وجدت فيها لذّة، أليس كذلك...؟ فرغم الألم الذي أصابك فأنك وجدت دروباً قادتك إلى مناطق من الحياة كنت تجهلها.

أنا مريم زوجة محسن وأنا أعرف أنك تعرف قصتي مع زوجي، وأعلم أنك استمعت إلى أقاصيص حولي حتى أضحيت كالأسطورة عندك، وأعلم مافي نفسك من شوق لمعرفة رأيي في هذه الحكايات، وأنا أريد أن أوضح بعض الغموض، ولا يهمني ماقاله الآخرون، وأريد أن أتمم لك حكايتي مع زوجي فقد كان يرجع من العمل منهكاً مكدوداً وينام باكراً، ويشتد شخيره ويعنف ويتعالى، وأسهر الليل وحدي، وأنا في أول عهدي بالزواج، وأبقى أغزل أحلام الشباب وأتجول في دروب متشعبة.

وذات يوم جربت السير في درب فإذا كله زهور، وإذا الحياة تبتسم لي، وإذا أنا أعيش أحلامي الغضة، ووجدت الدفء والحب والحنان وارتفعت حرارة جسمي ككل امرأة فطربت، ولهوت لهو الشباب، وككل عشق عنيف كان ابني سامي.

سادتي أنا سامي وأمي مريم وعشيقها اسمه سامي سمتني باسمه وهو أبي الحقيقي ماتا في حادث مرور عندما كانا ذاهبين إلى الحمامات ليمارسا حياتهما العاطفية، وأبي محسن النوبدي والدي القانوني مات بعد الحادث بأسبوع، فقد دخل البيت وأغلقه ولم يخرج منه إلا ميتا، وبقيت أنا وحيداً في هذه الحياة ، وأردت كتابة قصتهم فتخيلت كاتباً يجلس إلى زملائه فرحات والشاذلي وسالم في مقهى الباجي ويقترحون عليه كتابة قصة، فيلبّي رغبتهم ويسهر الليل كله وهو يتخيل أنه يحاور الشخصيات وينصت إلى حكاياتهم ويستمع إلى حواراتهم فيضجر أحياناً ويحسن الإنصات أحياناً أخرى وهو مع ذلك سعيد أن يتخيل هذه القصة وليس لي من وراء كل ذلك إلا أن أرسم سيرتي الذاتية وسيرة أهلي

❑❑

الله يحبنّـي يا "كريدو"

قصة : رشيدة الشّادني

الغنمة تلفّ أرجاء الصحراء وأنا أقف مصلوبا في حفرة أشدّ عتمة أصيح مع صوت الريح مناديا رفاقي لنجدتي فيعود إليّ صدى جزعي وكأنه يعلن عن سقوطي أخيراً في جبّ الموت:

"يبدو أنهم قد ساورا مسافة طويلة في خضم الرّمال"

أغرز أصابعي المعقوفة في الأرض التي تصلبّت بفعل شحوم السيّارات ونفايات النفط التي رميت في تلك الحفرة الواسعة ولكني أعجز عن النّهوض بجسدي الثقيل إلى مستوى سطح الأرض:

"لو كنت أقل طولا لابتلعتني هذه القذارة ومت على الفور" لا أدري كيف ترنحت خطواتي ومالت ، ووجدتني أسقط في هذا القبر الخانق كنت آخر السائرين مع رفاقي العاملين معي بشركة كهرباء الخليج. كنا خمسة رجال : مصري، شامي، فلسطيني ، فليبيني ، وأنا ، أحمد الشريف: تونسي.

كانوا يتناوبون على رواية حكايات طريف حتى يمنحوا أنفسهم شيئاً من الخفة والشجاعة ويتبادلوا نكاتا بذيئة سرعان ما تنطلق لها الحناجر بضحكات رجالية مدوية تخترق ذلك الفراغ المعبأ بالسّواد.

كنت متخلّفا عنهم ، أسير مكابداً أحزاني ولم أنتبه إلى ابتعاد أصواتهم عني وخفوت أضوائهم الكاشفة:

"الحمد للّه أن المصباح ما يزال مغروسا في رأسي"

أجيل بصري في المسافات التي تصلها أضوائي فيسكن الخواء روحي ليس هناك سوى أنين ريح ساخنة تذرو رمال الصحراء.

أطبق جفوني ببطء مستسلما للحظة يأس قاسية ثم أفتحهما فيذهلني منظر القذارة الملتصقة بصدري . أحاول العثور على عبارة مواساة لنفسي فيقفز إلى رأسي كل الظلم الذي شهدته في حياتي.

لم أكن أرغب بالعمل هذه اللّيلة جسدي مستسلم لخمول قاتل منذ حادث وفاة مواطني وصديقي المعلّم طاهر. بعثت بطلب استئذان مع رفيقي الفليبيني "كريدو" غير أني فوجئت برئيسي المباشر

يطرق الباب بعنف عند العاشرة ليلا ويقتحم الدار بصوته الأجش ومظهره الغبّي: – انهض يا أحمد، الضوء انقطع ، يجب إصلاح العطب بالخزينة الجنوبية قبل منتصف الليل.

يوترني صوته الأرعن، أنهض متشنجا ، يهدئني "كريدو" حين يرمقني بنظرة متبصرة منه ثم يخطو نحوي ويمسك بي من ذارعي مهوّنا على صعوبة اللّحظة:

– تعرف أني شيّعت البارحة جثمان صديقي المعلّم طاهر إلى المطار وقبل ذلك بأيّام قليلة فقدنا زميلنا التونسي المهندس نجيب بسبب خطأ غبيّ ارتكبه أحدكم...ألا ترى أنّه يحق لي أن أحزن قليلاً؟

– يا اللّه يا راجل ، الحزن للحريم، وهذه حكمته سبحانه وتعالى، يا الله ، انهض ، نحن ندفع لك دولارات لكي تعمل لا لتنام.

يهزّني تعليقه الجافّ ولهجته النّاشفة، أرمق أنفه المفلطح وفكّه العتيق بغضب ثم ينزل بصري إلى بطنه المستديرة ، أعجب كيف ينحني هذا الرجل للصلاة وأتساءل عن حاجة هذا المتخم إلى اللّه.

أرتدي زيّ العمل بخمول شديد ، المسألة تتمثّل في المحافظة أثناء مثل هذه اللحظات الحرجة على هدوء الأعصاب ، يقرر كريدو الخروج معي للعمل حصّة إضافية، أسمعه يهمس بكلمات فليبينية قذرة... ينتصب الرجل الغبّي أمام الباب منتظرا خروجي ومحدثا بصوته العالي ضوضاء قويّة جعلت بقية العمّال السّاكنين تلك البيوت الواطئة يخرجون لاستجلاء الأمر... أجلس خائراً على المقعد الخلفي من سيارة "اللاندروفار" يتصاعد الغضب بداخلي. يأخذني لهاث سريع، أدرك فقط في تلك اللحظة سر موت المعلّم طاهر:

"لا بد أن الشّمس والغضب قد تحالفا عليه" .

طاهر رجل شديد الأناقة وناعم الكلام. أعرفه منذ كنّا ندرس معا بمعهد الكاف غير أنه اكتفى بالشهادة الثّانوية والزواج مبكرا من قريبته بينما سافرت إلى روسيا لإتمام دراستي في الهندسة الكهربائية.. وفجأة التقينا هنا، جمعتنا رغبة واحدة وهي أن نجمع المال الكثير بأقل سنين ممكنة. ولكني اكتشفت أنّه تغير كثيرا ، انطمست في نفسه كلّ متع الحياة وكأن كآبة غامضة سكنت أعماقه. وفي المرّات التي كنّا نجتمع فيها للسهر يصدح بصوته الجبلي المشحون برقرقة أسى عذبة مغنيا للمطربة مليحة بعضا من أجمل ألحانها: (هجر الحبيب، في الغربة فناني، يا خيل سالم، فوق الشجرة أم الحسن غنّات، بخنوق بنت المحاميد...).

يخيم صمت عميق على الأصدقاء وهم يتأملونه مأخوذين بسحر غامض بعضهم كان يحاول كبح جماح دمعة تريد أن تفرّ من عين ذهبت بها الذكرى إلى أرض بعيدة ... ذات مرة قام أحد الأصدقاء من مكانه ملتاعاً وبسط كفيه نحو السماء صارخاً بجنون :

– ربي ، أُمطرنا خمرة حتى تكتمل نشوتنا.

حين يتوقف طاهر عن الغناء يغرق الجميع في سكون بالغ أمّا هو فيبدو وكأن الغناء قد حرره من ضغط نفسي ثقيل أساله عن ظروفه بالعمل فيجيب بصوت مهيب:

– أحاول فقط أن أكيّفَ مزاجي مع مفاهيم حمقاء صارت تتحكّم بي.

أعرف أنّه يعاني من مشاكل عقيمة في عمله . قبل وفاته بيوم واحد روى لي أن مدير المدرسة أعاد له دفاتر التلاميذ صارخا في وجهه:

– ما هذه النتائج الضّعيفة!؟ أتريد أن تحصل مصيبة وتتسبّب في طردك من البلاد وبهدلتي؟

– هذه النتائج هي الشّهادة الحقيقية لمستواهم . إنهم مدللّون وكسالى.

– ليس من حقك أن تصدر الأحكام وتقرّر مصيرهم. نحن ندفع لك دولارات ليس من أجل أن تجعل أطفالنا يرسبون، هيّا غيرّ الأعداد أو استبدلناك بآخر.

أطللت في ذلك المساء على وجهه المتوتّر فوجدته غارقا في فوضى أوراقه يعيد صياغة الأعداد والحسابات . أتساءل بحزن وأنا أتأمّل ارتجاف أصابعه:

– ترى هل يستطيع صياغة نفسه من جديد؟ أبناء مدينتي قد يقتلون أنفسهم غضبا لو اعتدى أحد المتسلطين على كرامتهم وقد يموتون ندماً إذا اضطر الواحد منهم للتنازل عن كبريائه والانخراط لحظة في موقف نفاق.

في اليوم التالي هرب طاهر من المدرسة كما تهرب قطّة من النار عصفت به لحظة جنون قاسية فرمى بدفاتر تلاميذه في وجه مديره الذي اعترض طريقه مندهشاً من تصرّفه وطار بسيّارته في سرعة مجنونة . يريد أن ينسى الموقف، ينتزع شظيّة الرهانة من نفسه، حولت السرعة غضبه إلى حالة نشوة.

لم يعد يفكر سوى في اللّحظة تلك. نسي زوجته وبناته الثلاث وجبال الكاف الملتحفة شتاء ببياض قدسيّ وهانت عليه مروج قريتنا وثلوجها التي طالما رفسها بحذائه الطويل وهو يعود من المدرسة محمّلا بكراريس ثقيلة ومتطلّعاً إلى أشجار سامقة بكبرياء أخفت بداخلها أعشاشاً تعود إليها طيورها ربيعا وهي محتلة بشوق شديد.

تندفع السيّارة بجنون في الطريق الصحراوي المؤديّ إلى الشمّال تطارده موجات الغضب وتعترضه كتلة الشمس الملتهبة وكأنها تتهيأ للسقوط على رأسه. تتحوّل الذاكرة إلى لوحةٍ بيضاء . لم يعد يفكر إلا في غضبه. يمعن في السرّعة فتخطفه من نفسه وتنقلب به السيّارة في أحد المنعطفات المرتفعة

فتقتلعه اللحظة من الحياة.

يركض الألم بداخلي وأعود إلى نفسي الغارقة في قذارة النّفط، تنقبض ضلوعي وأنا أرمق الكون الغارق في سكون أسود ينفد صبري وتحوم الذكرى الأليمة حول رأسي فأطلق صرخة يأس حادّة هي كل ما أملك القيام به وسط تلك النفايات وذلك المصير الأبله:

"لعن اللّه ساعة فكّرت فيها بالرّفاه الماديّ ، لقد صنعت جحيمي بنفسي"

أُقف وسط الموت يلفني صمت قاس . ينتصب في ذاكرتي وجه والدتي فتعتريني قشعريرة حزن ... أرفع رأسي محدّقا في سماء كئيبة غطتّها غيوم ثقيلة لا أثر فيها حتى لطلة القمر فأدرك أن، وقتا طويلا قد مضى.

المطر لا يعرف طريقا إلى هذه الأرض . يتكرّر قيظ الأيّام فيمتلىء الكون بسحب سوداء تخنق بكثافتها الأنفاس البارحة صباحاً حظينا بساعة فرج مفاجئة حين هبّت نسمة باردة ونحن نشيّع جثمان طاهر إلى المطار ليدفن في أرضه "لعن اللّه الزمن، صرنا نتصيد لحظة برد عابرة فندخر ذكراها لعام كامل أدرك للمرّة الأولى حجم المسافة التي تفصلني عن وطني أشعر برهبة شديدة لطولها.

عندما جئت هنا. ظننت للوهلة الأولى أنني لن أستطيع الخروج نهارا للعمل بسبب الحرارة. الشّمس تنتصب فوق الرّؤوس وكأنّها تتربصّ بها.

ينفجر الضيق فجأة بصدري كلغم قد يم وتكاد روحي تقفز من بين ضلوعي فأصرخ بصوت حادّ ملتاع تكسر عشوائيته هيبة الصحراء وكأن حمّى غريبة سكنتني.

يبزغ فجأة ضوء خافت في الظلام لا يلبث أن يغمرني بنشوة عارمة يظهر طيف رجل من بعيد جعل يركض باتجاهي : " لا بدّ أنه لسع ضوء المصباح المنغرس في رأسي عندما يصبح على مسافة قريبة مني يصيح بصوت مدهوش ويهذي بلغة لا أفهم منها سوى أسمي.

تنز عيوني بدمع حارق:

"أه ، كريدو ، جئت أخيرا... ترنّحت خطواتي فوجدتني أسقط في هذا الجبّ اللعيّن يا الله يا كريدو لأنه جعلك تكتشف مكاني..."

ينبطح كريدو على بطنه مادّا يده الصغيرة نحوي . أترشّف ملوحة دمعي كطفل . أتنقّل بخطوات شاقة داخل القذارة أمدّ يدي نحوه تتلامس أناملنا ثم تتماسك بقوة . يشحذ كريدو كلّ قواه لجذبي ولكن ذراعي المسكين نحيلتان جدّاً ولا تقويان على رفع جسدي الضخم . إنه أشبه بكائن خرافي حين يكون واقفاً إلى جانبي يتأمل العالم بنظرة تحمل مزيجا من الذكاء والإنسانية العالية.

يهتدي كريدو إلى حلّ آخر ، يطلب مني أن أصبر قليلاً ريثما يأتي بالكابل الذي رماه على بعد أمتار.. يفتح خيط الكابل الملفوف على شكل دائري ويرمي بطرفه نحوي، ألتقطه بلهفة وأشدّ به

صدري يمسك كريدو من الطرف الآخر ويسرع في جذبي أدفع بجسمي إلى أعلى . أشعر بأنفاس المسكين تكاد تنقطع ولكنّه يصّر على المزيد من بذل الجهد والتمرّد على ضعفه الجسدي.

الرجل الغبيّ لم يترك لنا حتى سيّارة اللاندروفار" لتسعفنا في اللحّظات الخطرة . رمى بنا في هذه الرقعة من الصحراء كما ترمي النفّايات ورحل مؤكدا أنه لن يعود إلينا إلاّ حين يتسلمّ إشارة بإصلاح العطب.

تنتاب كريدو بوادر الإرهاق. يمسح عرقه بطرف قميصه ثم تأخذه موجة جديدة من القوّة يحاول جذبي من جديد ولكن لا يلبث أن يتقدم به ثقل جسدي خطوات إلى الأمام أخشى أن يقع بدوره في الحفرة . إننا نلعب لعبة أزلية يجذبني نحو الحياة وأجذبه نحو الموت.

تظهر فجأة أضواء متحركة . تصلنا أصوات رفاقنا يهرعون إلينا مأخوذين بدهشة بالغة وبعد لحظة ذهول يمسك إثنان منهم بالكابل مع كريدو ويسارع آخران إلى يديّ فيشدّانها منهما ويساعدانني على رفع جسدي .وفي لحظة واحدة أصبح على سطح الأرض.. يربت رفاقي على كتفي حامدين اللّه على سلامتي. تسقط نظراتي المتعبة على هيئتي التي تتقاطر نفطا فيغمى عليّ.

❑❑

جبل الثّلج والعاصفة

محمد الجابلّي

البداية

" إن ما ندعوه بداية هو في الغالب نهاية فالنهاية هي من حيث نبدأ !
كل عبارة وكل جملة أي عمل إن هو إلا خطوة نحو آلة الإعدام نحو النار ، تحت صخرة البحر أو نحو حجر غير مقروء ذلك هوا لمكان الذي نبدأ منه !

[اليوت]

أنتَ هادئ ومتزن وتكره الاضطراب ، لكنك تقفُ قرب نافذتك العريضة وتتطلع عبر بلورها الصافي إلى حركة الرياح العاتية .... تنظر إلى قفل نافذتك الحصين وترقب العواصف فتزداد طمأنينة ورضى ..

لأنك تعيش في مكان معلوم وثابت وتتأمل جدران بيتك الذي اجتهدت في اختيار ألوانه وتحث الخطى كلّ صباح إلى عملك الذي ألفت بعد أن تتطلع إلي عيني زوجتك التي اخترت وتعتني بهندام صغيرك الذي تجرّه وراءك في كل مناسبة وتجتهد في أن يرث بعضاً منك ... وغالباً ما تتحسس بطاقة هويتك الثابتة في جيب سترتك وتجتهد في أن تطوّع دخلك على قدر حياتك أو حياتك على قدر دخلك وتنتصر حينا وتأسف أحياناً ، وتجد اسمك في قائمة الناخبين بأحرف غليظة دون خطأ وتبادِل الآخرين الابتسام والتشاؤم والتحية وأسئلة الصّحة والأحوال ، وتبدي أراءك في الطقس المتقلّب والأسعار وتضيق كالآخرين بكثرة المناسبات وأعباء الأسرة فأنت مواطن ويمكنك أن تنتخب وأن تُشارك في الشؤون الهامّة وأن تتطلع إلى الغد وقد تصنع سعادة كونفشيوسيّة بقد قامتك ليست أطول وليست أقصر !

وقد تُغضبُ " كامو" لأنك لست (الكائن الذي يرفض أن يكون ما هو) ، وقد تسعى أيضاً لتعديل صلتك بالسماء مادمت قد ثبتّ في الأرض وقد تمني النفس بأن تجد الذين أحببت هناك لأنك وإن لم تكن ورعاً فأنت حسنُ الطوية لا تجدّف وترعى صلة الرحم وتحتفل بجميع المناسبات الوطنيّة والدينيّة وتشارك الآخرين في حملات الاستنكار الجماعي كاستنكار العري في الأفلام الإباحية أوالكتابات الجريئة .. وتطرد الأسئلة قبل ظهورها وتسيّر وضعك بديبلوماسية حكيمة مع سلطات الأرض أو السماء وتقف في الوسط خلفك خلقٌ وأمامك خلقٌ : يزعجك الزحام فتتطلع حيناً إلى الأمام فترى السّبل مغرية لكنها شاقة فتأسف لكنك تنظر إلى الوراء فترى خلقاً غفيراً يصارع العيش فتعاودك سكينة وتبهرك أضواء كالتي تبهُر الممثل القدير بعد أداء دوره الصعب ويتناهى إلى مسامعك هتاف وتصفيق فتعدّل ربطة عنقك ويغمرك الرضا وتبتسم للجميع بحبّ نبويّ ولأنك كذلك فلن تستهويك المغامرة لأن الكون ثابت كعيني زوجتك وأسئلة أصدقائك وكخطواتك التي تعودّت إحصاءها منذ زمن ويزعجك أن تزيد أو أن تنتقص .!!.

قد يلذ لك في بعض الأحيان أن تسمع حكايات عجيبة تذكرك بحكايات جدتك التي كانت تُجهد الخيال في صنع أبطال قساة يصارعون ويقتتلون كي تنط أنت خائفاً متعلّقاً برقبتها والذعر يملؤك فتحتضنك منتصرة وتضمك إلى صدرها في حنان متجدّد .. قد تسمع الكثير من مغامرات الحياة وكلّها تجعلك تلتصق أكثر بألوان بيتك وعيني زوجتك

وقرارات رئيسك .... تركن إلى الوسط ويصيبك ارتياح لأنك تجلس في الدفء وتنظر عبر الزجاج العريض إلى العاصفة الهوجاء والأشجار وحركة الأجسام المترنحة المبلّلة التي تصارع !!.

تئزّ مفاصل نافذتك فتطمئن إلى أنها محكمة القُفل وتتطلّع فترى الآخر يجلس فوق صخرة فيصيبك العجب وقد تعتقد أنه ممّن يعانون لوثة عقلية أو أزمة عاطفية وتُطيل النظر وتراه لا يحوّل بصره عن الأفق البعيد ولا ينظر إلى نافذتك فتطمئن إذا لاشيء يتعلّق بزوجتك أو بإحدى جاراتك فتعاودُ النظر إلى قفل النافذة وتستمتع بدفء الشتاء في حين يجلس هو على حافة شائكة ويستحث الروح وقد ينظر صوب نافذتك ويقول :

" أيها المصغي إليّ في الأعالي ماذا لديك تُفضي به ؟
أنظُر في وجهي وأنا أستاف ريح المساء !
سيعسر عليك أن تعرف من أنا ؟!
لكني سأكون مع هذا صحّة طيبة لكم وأتخللّ دماءكم !!
إذا لم تجدوني في موضع فأنشدوني في سواه !"

الفصل الأول

جبل الثلج ؟

الأمواج تضطرب وتصطخب مذعورة يهزم بعضها البعض فتتشظى منتحرة بين الصخور ويعلو الزبد متكاثراً ويطير الرذاذ متناثراً فيصيبه ويتراجع مبتعداً وينظر إلى المراكب العابرة تتضاءل في الأفق الخطر فتنئ مبتعدة وإلى الطيور البيضاء تُصارع الرياح فتترنح لكنها تغوص بين الأمواج وقلّما تُفلح في التقاط الأسماك الطافية على السطح فتعلو أكثر ثم تعاود الغوص في أعماق أكبر ... وتجري السحب داكنة وتغور زرقة البحر ويحتل الضباب الأفق فيغدو قريباً كجدار من دخان قاتم فترتدُّ النفس حسيرة ومعها البصر قريباً .... فتحاصره الحدود وينظر في ساعته ، يتردد ثم يمضي ...

يسير في الشارع العريض ثابتاً فارعاً كجندي يطمس آثار الهزيمة ، فتياً كتمثال روماني تدفعه الرياح وأمامه تتراكض الأوراق والأغصان الصغيرة فزعة ، يعبر الميدان فتطالعه " ماكدونالد " بواجهتها الخشبية الداكنة وأضوائها المتألقة فيحث الخطى وينظر في ساعته لأنه سيلقاها تجلس كالعادة في الطاولة الخامسة إلى يمين المدخل لأنها من اللواتي يحافظن على عاداتهن الصغيرة ويخلقن ألفة مع الأشياء ثابتة ويجدن راحة في ذلك الإصرار الذي يشبه الاختيار والتميزّ .. دخل لكنه لم يجد " كريستين " وأعياه النظر في ساعته ثم جلس إلى الطاولة المعهودة ونظره مشدود إلى المدخل ... مستسلماً لهاجس الانتظار والانشطار بين خيبة اليأس وأمل الرجاء يُحاصره النادل بنظراته المتطلعة ويمرّ قرب الطاولة ويعاود المرور بإلحاح فينظر في ساعته للمرّة العاشرة ثم ينسحب ويمرّ بالهاتف القريب لكنه لا يظفر بجواب .

يسير في شارع " الحمراء " دون وجهة معلومة ، يلوك هواجسه ، يصمّ أذنيه صرير فرامل سيارة واحتكاك عجلها بالإسفلت وتتوقف بجانبه يقودها شخص قصير ذو ملامح آسيوية مستديرة ومعه أشخاص لم يتبين وجوههم ، كان السائق يتفحصه وينظر في ورقة أو صورة يضعها في يده ويبسطها فوق المقود ... تابع سيره بخطى عادية وكانت السيارة تتحرك ببطء يكاد يوازي بطء سيره ثم انطلقت بسرعة مجنونة وانعرجت لتختفي في أول تقاطع وسيارة أخرى تتبعها وكأنها تطاردها....

أحس بضيق لعله من بعض الخوف أو من صرير الفرامل المنفر الذي استفز أعصابه إلا أنه واصل سيره وأصبح يدرك أن العيش في هذه المدينة استفزاز موصول تتواتر فيه صفارات الإنذار والقصف والطلقات الفجائية التي تنبعث من أماكن مجهولة وتصيب أهدافاً مجهولة .... أصبح يدرك أن الشرق ضباب و " بيروت " غربة وهو في غرب "

بيروت " يرى الأطفال يمزقون الأحلام ويرقصون على أصداء القصف ويخرجون من الملاجئ فرحين يتسابقون للفوز ببقايا القنابل ويرى النسوة يزغردن خلف النعوش ، والرّجال تتقد أعينهم وتهيجهم الحمرة كثيران " إسبانية " والجو يتعتّم ثم يصفو والموت يتجوّل في كلّ زيّ وتحت كلّ لحية وقبعة .

كان عليه أن يبلغهم بأمر السيارتين لأنهم يحسبون ألف حساب لكل حادثة مهما بدت عادية وعابرة وتذكر وصية " مستر هاردي "

– " عليك أن تحذر خاصّة ممّا يبدو لك عادياً لأن الخطر الحقيقي يُداهمنا دائماً من حيث لاننتظر " .

لكنه قرّر تجاهل ما قد يحصل وودّ أن ينساق في لا مبالاة تُشعره بشيء من الحرية حتى وإن كانت خطرة ومحدودةً

قال له " مستر هاردي " يوم قذف به إلى الضباب :

– " عليك أن تتعلم التخفي خلف أسماء وجنسيات ووظائف موهومة لأنهم هناك لايكنون لنا الحب رغم أنهم يخشوننا ".

ومنذ خطواته الأولى اجتهد في دفن ذاته وبرع في تقمّص ذوات وأوطان وحكايات بدأ " سويديا " في القاهرة ثم أصبح " دانمركيا" في بغداد والهند هاهو الآن " نرويجي " في " بيروت " تتغير جنسياته لكنها غالباً ما تكون من تلك الأصقاع النائية التي انعزل أهلها زمناً ولم ينخرطوا في الصراعات الحديثة مما جعل أهل الشرق ينظرون إليهم بحياد وأحياناً بشيء من الإعجاب تدعمه بعض الأساطير عن الثراء والأراضي الشاسعة والجليد القطبي .

وكان في بدايته يجد عناءً في اختلاق الحكايات عن أوطانه المزعومة عندما يلقى سائلاً لجوجاً لكنه الآن برع في الخيال مدفوعاً بحبّ الشرقيين للحكْي وقدرتهم على الاستماع والاستمتاع بكل عجيب خارق .

تقول له " كريستين " كلما أعلن احتجاجاً على أساليب التمييز في عمل منظمة الصليب :

– " شخصيتك تنطوي على إحساس مسيحي عريق بالعدل .... أنت مثال لبطولة وبراءة تأتيان معاً من طبيعة بكر ..."

إذ كانت تعتقد كما يعتقد الجميع أنه نرويجي وأن طبيعته العادلة هي من آثار العزلة الهادئة التي يعيشها بلده .

وبما أن " كريستين " كانت تشبه الشرقيين في عشقها للخيال أصبح يتجرأ فيصنع عوالم وهمية ويجعلها أسيرة فيها فتظل مشدودة إلى شفتيه تستحثه على المزيد : تسأله عن وطنه المزعوم وتعاود السؤال بشيء من الإلحاح وكان خيالها ينمو بفعل حكاياته العجيبة فيمتصّها كما تفعل إسفنجة جافة ببركة ماء فتمتلئ وتتفتح مسامها ثم تفيض من سطحها وجانبيها وبدا له أن انتماء " كريستين " لطبقة متوسطة وتعليمها الكنيسي وسنواتها في " الدير " بين الراهبات كل ذلك جعل نموّها فيه بطء ، فاحتلت المثل وحكايات القداسة جانباً هاماً من وعيها على حساب حكايات الأرض وعجائبها ولذلك كانت تتبنّى حكاياته وتطورها بحرارة من عايش المشهد حتى أنها كانت تفاجئه بحكايات فرعية لم يذكرها عن جمال الجليد في " النرويج " وعن طرق الصيد تحت طبقاته وعن الكلاب التي أحبّت ذئاباً فهجرت أهليها وعن الذئاب التي ألجأها الجوع فأصبحت كلاباً أليفة وعن محاصرة الذئاب لحدائق " أوسلو " من أجل تخليص قائدها الذي وقع في فخّ صياد وباعه للحديقة وعن الذين دفنوا تحت الجليد شهوراً ثم عادوا للحياة بفعل أشعة الشمس ... وكانت تسمع الحكاية منه ثم تركبها بطرق مختلفة وكأنها تتذكر عالماً منسيّاً يشبه عوالم المثل عند " أفلاطون " تلك التي تُثار عبر التوليد والتذكير وكان يلذُ له متابعة تفرعات خيالها البكر الذي ينقدح بفعل خرافاته

فيزيدها عجباً وأصبح يعاملها كطفلة فمنحه ذلك حرّية أكبر في الكذب دون تحفظ وامتدت الجسور بين خياليْهما متينة مُبهرة بدائية لا تخضع لمنطق أو عقل .... وأصبح يجتهد لإرضائها ويلوذ بها

ويجعل منها مرفأ لمراكبه المتعبة ، يدفن فيها وحدته ويؤلمه غيابها لأنه يذكره بضياع يسعى لتجاهله .

تحتل " كريستين " خياله : يذكر يوم دخلت مكتبه تلفّها حمرة غاضبة جعلت وجهها يبدو جميلاً فخرج عن حدّ الوسط لأن " كريستين " فتاة لا يمكن أن يجتمع اثنان في تقييم درجة جمالها فهي ليست جميلة ولو قلت أنها جميلة ستجتهد كثيراً لتبرير موقفك وهي كذلك ليست قبيحة كل ما بها منسجم بهدوء غير مميزّ إلى حد أنه كان أحياناً يراها قبيحة وأحياناً أخرى كان يراها جميلة جذّابة وكأن حيادية الوسط في ملامحها مرشحة للانزياح متأرجحة بين الجمال والقبح .

عندما دخلت " كريستين " مكتبه محمرّة رآها في وضع يختلف تماماً عن وضعها المألوف بدت جميلة وانشدّ إلى قسماتها وهي تكاد تصرخ في وجهه :

– "اسمع " مستر جون" – أنا لم أغادر دير القديس " جورج " – ولم آت من بلجيكيا لأزيف أو أرتشي ، إن كانوا هم ينظرون إلى الأشياء بوجهة مختلفة فلايمكن أن يستغلونا نحن في تنفيذها..."

قال لها وقد كان يودّ أن تواصل غضبها ليتقد جمالها :

– " إهدئي "كريستين " إني أفهمك تماماً بل اتفق معك فنحن منظمة دولية محايدة بل أن الذين يعملون هنا في معظمهم يمثلون نخبة منتقاة يجمعهم ضمير واحد رغم اختلاف جنسياتهم ودياناتهم ومذاهبهم ...

كانت وهي تسمعه تعود إلى هدوء وسط احتل قسماتها ثم تبدّى في كلامها وقالت :

– أشكرك "مستر جون " لكن علينا أن نترجم ذلك فعلاً وأن نعمل على مضاعفة الدّعم الذي يُقدّم لوحداتنا في القسم الغربي فهم هناك في أشد الحاجة للمصحات المتنقلة والأدوية والأطباء الجدد ..... ألا ترى أن معظم مايصلنا يوجهونه لوحدات القسم الشرقي حتى إن بعض المصحات الخاصّة أصبحت مجهّزة من تجهيزاتنا ... "

ومن يومها تقارباً بفعل الغضب والاحتجاج وأصبح يهتم بها أكثر ، وفي كلّ يوم يزداد كيانها انجلاء فترجّحت كفّه الجمال بأثر من منطقها الواضح وطريقتها المعبّرة في الحديث ووصل الأمر بهما إلى تآلف هو قريب من الحب بل قد يفوقه قوة لأنه بدأ من رأسيْهما ثم انتقل بغموض فيه شيء من التواطؤ من اتفاق الموقف إلى لذّة الجسد.

لكنه يذكر أيضاً أن ذلك الانتقال من الاتفاق إلى اللذة ارتبط بحادثة تبدو غريبة عن كليهما حتى أنها ظلت منطمسة تستقرّ بعيداً في غورّيْهما دون أن يجرؤا على استعادتها فكان يشير إلى تلك الحادثة أحياناً ثم يتراجع حين يجد أن " كريستين " تُمعن في تجاهلها وتسعى لتغيير مجرى الحديث

وبدا له أنها هي كذلك أشارت لتلك الواقعة بعض المرات إلاّ أنها كانت تتراجع كمن يطمس أمراً يعتبره غريباً أو مُخجلاً لايتفق مع طبيعته ..

حصلت الحادثة حين أحسّ كلاهما أنهما يتفقان كثيراً ويتحدثان في الخواطر والأفكار والجزئيات التي لا تكون إلا بين صديقين وكان الافتراض بأن علاقتهما يجب أن تتطوّر يترجح حينا ويختفي أحياناً أخرى ولا شك أنها هي كذلك انتابها ذلك الإحساس المخاتل إلاّ أن الذي يمنع تحويل الاتفاق إلى لذّة قد تكون تلك البداية التي جعلته يرى " كريستين " كذات موازية حتى نسي أنها امرأة ويبدو أنها هي كذلك نسيت أنه رجل وأصبح من الصّعب على كليهما العودة إلى جزئية اللّذة تلك التي غمرت ولم يكن لها أي أثر في صنع حيميمتهما .

أصبحا معاً ضحية إحساس تقوده خشية مبهمة من اختلال ذلك الاتفاق لو تحّول إلى وجهة أخرى وارتبط ذلك التحوّل بعنف غريب عن كليهما ، يختلف عن الهدوء والانسجام اللذين سادا صلتهما في المرحلتين ، أعني بها (الاتفاق واللّذة) .

يومها كان " جون في اجتماع احتد فيه النقاش حول تقييم نجاعة سير العمل في هيئة الصليب الأحمر وحضر الاجتماع كل رؤساء الأقسام وبعض الأطباء من كامل وحدات بيروت وكانت رئاسة الاجتماع كالمعتاد من نصيب الدكتور الأمريكي " براون " الذي كان يعرف بصلفه واستعلائه إضافة إلى وقاحته التي لا تتناسب مع مركزه أو مع سنّه وكانت " كريستين " على خلاف دائم معه حول مسائل التسيير ويبدو أنه أراد تحييدها بطريقته المألوفه فحاول مغازلتها مرات إلا أنها صدّته وأمعنت في إهانته ... يذكر أنه دخل قاعة الاجتماعات قبل " كريستين " وكان " جون " و " د. براون " على خلاف دائم أيضاً ولاشك أن " د. براون " كان يكره " جون : لكنه يظهر له الودّ والاحترام الممزوجين باستعلاء أبوي مما جعل " جون " يعتقد أحياناً أن " د. براون " قد يكون على علم بحقيقته الخافية على المجتمع كان " د. براون " يجلس في المكتب الفخم وتمتد أمامه طاولة مستطيلة جدّا تحلّق حولها الأعضاء المدعوون فاتخذ " جون " مكاناً قصياً على طرف الطاولة المستطيلة ، ودخلت " كريستين " وحيّت الجميع .. ثم احتلت المقعد المجاور " لجون " فكانا يجلسان على حافتيْ زاوية الطاولة في وضع يُباعد بين جسميهما لكنه يجعل أرجلهما تكاد تتداخل ... وكان قد تهيّأ هو " وكريستين " وأعد العدّة لمحاصرة " د. بروان " وأتباعه واجتهدا في كسب عدد هام من المعترضين على رأسهم خاصّة الإيطاليان سنيور " براندللي " والأب " جوفاني " فُتح الاجتماع بكلمة د. براون " فأشاد بدور المنظمة وألمح في كلمته إلى بعض الذين يشككون في نزاهة دورها وقال أن الأعمال الإنسانية العظيمة دائماً تلاقي العقبات .. وقال أن العديد من الدول لم تف بالتزاماتها المادّية والبشرية وأن الولايات المتحدة هي التي تُسند المنظمة وهي حريصة على استمرار نزاهتها بقدر حرصها على استمرار دورها الإنساني ...

ثم بدأ النقاش فاقترح سنيور " براندللي " أن تكون رئاسة المنظمة بشكل دوري واقترح إجراء تحقيق فوري وتحديد المسؤولية في الأدوية الفاسدة التي أرسلت لوحدات الشطر الغربي كما طالب بضرورة إقالة الانجليزي مستر " بلوم " لأنه أخلّ بمواثيق المنظمة ونقل عتاداً عسكرياً لميليشيات

الجنوب في سيارات الإسعاف إضافة إلى سوء معاملته للجرحى وتصنيفهم حسب انتماءاتهم وأعرافهم ...

كان سنيور " براندللي " يتكلّم بطلاقة وحدّة شدّتا إليه الانتباه وكانت " كريستين " من أكثر المتحمّسين لكلامه حتى أنها كانت تنبّه " جون : إلى أهميّة القضايا التي يثيرها المتكلم بحركة من فخذها الذي يلامس مستوى ركبته ، وأثارتْه تلك الملامسات المتكرّرة وكان ينظر لوجه " كريستين " فيجده أجمل مما كان يراه سابقاً حتى بدا له أنها تلامسه بطريقة تجمع بين عفوية التنبيه وخبث الإثارة فتمطط في جلسته في وضع يجعل ركبتها اليسرى في مستوى فخذه الأيمن وتهيأ له أنها استجابت للوضع الجديد فمدّت ساقها اليسرى لتكون تحت ساقيه بحيث يكون جزء من فخذها بين فخذيه وتشابكت أرجلهما تشابكا حميماً وكان يتطلع إلى وجهها علّه يرى فيه تعبيراً ما فيجده صارماً رغم جماله المشرب بحمرة غاضبة في حين تنشد عيناها لمتابعة المتكلمين ...

استمر الاجتماع لساعات طويلة وسرت حرارة في كامل أوصاله وكأنه اكتشف بعداً آخر كاد ينساه في "كريستين " لكنه بعد عسير ليس بفعل تمنّعها بل بفعل الوجهة التي سارت عليها صلتهما والتي يعسر أن تتغيّر... خرجا من الاجتماع مرهقين وموتوريْن وانتبه " جون " لثيابه التي التوت بفعل جلسته المائلة فقصد " التواليت " لينظر في وجهه وهيئته ووجد أن " كريستين " كانت قد سبقته لنفس الغرض تقف أمام المرآة تسوّي شعرها بيديها وتتأمل وجهها الموتور وكانت قاعة التجميل خالية فاقترب حتى وقف وراءها وخيّل إليه أنها تحركت لتلامسه بمؤخرتها وهي تحدثه عن قضايا الاجتماع فاقترب أكثر حتى لاصقها من الخلف فتجمّدت نظراتهما المنعكسة في المرآة وتحركت يده بطيئة ثقيلة مرتعشة واستقرت بتردّد على نهدها الأيمن في حين تحركت يده اليسرى وحطت في أسفل خصرها ... أغمضت عينيها للحظات ثم فتحتهما لترى وجهيْن منعكسين في المرآة موتورين وممتقعين فانتفضت بعنف أفقده التوازن واستدارت نحوه

وصفعته صفعة كادت تُفقده الوعي .... فوقف مفجوعاً ووقفت هي متحفزّة كل منهما يحدّق في الآخر بشكل مستقيم ...

تملكه شعور يصعب تحديده هو بين الغضب والخجل والانتقام ... وبدا له أن التراجع بات مستحيلاً وكان عليه أن يتحرّك أو أن يتكلّم ... كانت نظراتها الحادّة تزعجه وازداد وجهها جمالاً واستدارة وحمرة فخطا خطوة جعلته يكاد يلامسها في حين تجمّدت هي في وضعها المتحفّز فامتدت يده ودفعتها من كتفها بقوة جعلتها تتراجع وتستدير وانزلقت رجلها فترنحت وكادت تهوي فوضعت يدها على حوض الحنفية وكاد أن يرتطم رأسها بالمرآة فأسرع وأمسك بخصرها حتى يقيها السقوط وحين استقامت واقفة كان يطوّقها من الخلف ، وبدا له أنها سكنت في ذلك الوضع وأن سرعة ما حصل شلّ إرادتها فطوّقها أكثر واندفعا معاً متراكبين في التحام بدائي فيه تجسيم لشهوة متوحشة توجهها طبيعة فظّة ويذكر أنهما انفصلا خائرين وأوصلها إلى شقتها دون أن ينبس بكلمة ولم يحاول أحدهما أن ينظر في وجه الآخر .

لم تكن مغرما بالنساء إلاّ بقدر معقول لرجل في مثل ثقافتك وهواجسك ويبدو أن نزعة تآلفك مع الشرق فيها شيء من فصام نفسي مبهم لأن مايشدك إلى المرأة هو الجانب الخفي وليس الواضح ولعلّ رغبتك في "كريستين" ما كان لها أن تظهر لو لم تكن تلك اللّمسات الخفيّة يوم الاجتماع تلك التي تندرج ضمن " غير المتوقع " وفي مكان أبعد ما يكون عن الرغبة واللّذة وتعتقد أن " كريستين " لو عرضت عليك نفسها عارية في غرفتك وفوق سريرك لأدرت لها ظهرك وخرجت ؟؟

بدأت تفهم سر تلك الحركة الأمتع في " عزة " تلك التي أصبحت تنتظرها بلفهة ، تلك التي تفجّر العلامات من تحت الحجب ؟ عندما تزيل " عزة " النقاب وتباغتك بما كنت تنتظر فتجدّد فيك انكشافاً شديد الإثارة والفتنة ... تفتح لغزا فتنفتح ألغاز ، في كل حركة من حركات " عزة " كنت تكشف شرقا يتفاعل في الخفاء خلف الستائر والحجب والرمال والأضرحة والتراتيل ، شرقا لايظهر إلا قليلة ، باطناً أبداً توجهّه إشارات وأرواح وأخيلة .... حركته رمزٌ ضمن دوائر كونيّة تشمل كلّ شيء ولاستقر على شيء حيث تنصهر الأبعاد في أفق كالسّراب يتبدى خلبا يشحذ التّطلّع ويقتل الحركة .... تنظر في وجه " عزة " فتبدو ظلال من خلف النقاب كفجر يتبدّى خلقا جديدا .... يوم هربت من " عزة " إلى الصحراء فأحالتك الصحراء على " عزة " تلاشيت في امتداد فأحسست للحظة بنشوة المطلق حين تحنو السماء فتحضن الأرض لكن سرعان ما استبد بك رعب غربي مسكون بالعلاقة ومفرغ من الرمز تحاصره البدايات والنهايات والمسافات والأبعاد والحدود والأصداء والكتل فهربت من " الصحراء " كما هربت من " عزة " أو هما لفظتاك أنك لم تتهيأ لاستيعابهما ...

تعودّ " جون " أن يقود السيارة وهو في حالة شرود ، يقودها بنصف وعي فينتبه لما يجب أن ينتبه له السائق دون أن ينصرف عن خواطره الباطنية وأخيلته....

تفطن إلى أنه قد اجتاز كل " بيروت " بل سار مسافة في الطريق الرئيسية التي تتجه إلى " دمشق " وكاد يشرف على البوابة الحدودية الأولى بين " سورية " و " لبنان " فتوقف بشكل لفت انتباه الحرس الحدودي واستدار راجعاً بشكل فاجأهم وجعلهم يتعقبونه فأبطأ السيّر حتى يترك لهم فرصة اللحاق به .. تجاوزته سيارتهم العسكرية ثم طلبوا منه التوّقف من خلال إشارات ضوئية وإيماءات . ..نظر الضابط في وجهه ملياً ثم ابتسم وقال :

– " يبدو أنك من مسؤولي الصليب ..... نرويجي أليس كذلك ؟

ابتسم " جون " بدوره وقال ليرفع اللبس ؟

– " المعذرة كنت شارداً فتوغلت في الطريق دون وجهة معلومة ؟

ربّت الضابط على كتفه وقال :

– " لا داعي للاعتذار أنتم تعيشون معنا مأساة لبنان من خلال القصف والإسعاف والجرحى والأدوية ....

صافحه الضابط بحرارة وأضاف :

– " لا تنس – اسمي " فواز كريم " أعمل كل يوم مساء في دورية الحدود عدا يوم الجمعة.... " .

قفل راجعا إلى "بيروت " وبدا له أن الشرق مفتوح دائماً ببساطة لم يعهدها وكأن الشرقي لازال يعيش حياة البدو المنفتحة حيث لا أبواب ولا أقفال ، الكل تحت الشمس أوالنجوم يشدهم أفق واحد رحب ومنبسط ، تذكر صداقته الحميمة مع " وائل " ولا يعرف كيف بدأت وكيف تطوّرت كل ما يذكره أنه تدخل إلى جانبه في خصام بينه وبين سواق أحد التاكسيات في شارع " الرشيد " ثم أراد أن يزيل التوتر فدعاهم جميعاً لشرب " شاي " في منتزه " أبي نواس " على ضفاف " دجلة " ثم لا يدري كيف توطدت صلتهما ليكونا صديقين حميمين .. ترك سيارته في المرفأ القريب من شقته وسار لاشيء يشغله تدفعه الرياح وتلوكه الذكرى تجاوز شارع الحمراء وعبر نقاط التفتيش المتعاقبة بسهولة إذ أن معظم العسكريين وعلى اختلاف أحزابهم يعرفون أنه مسؤول سام في الصليب الأحمر إلا أن مواقفهم منه تبدو مختلفة وتظهر في اختلاف معاملتهم له عند اجتيازه المتكرّر لنقاط التفتيش ويذكر ذلك الجندي الملتحي الذي صرخ في وجهه يوماً :

– " عودوا إلى بلدانكم ودعونا وشأننا " .

فقال آخر للجندي الملتحي :

– " يبدو أنك لا تعرف مستر " جون " إنه من أصدقائنا النرويجيين وهو يحب العرب ويتقن العربيّة ..." .

عبر ميدان الشهيد يسير ويتفادى عربات الباعة المنتصبة في غير نظام ... أطفال يصخبون ومسلحون يتمترسون فوق العمارات الجرباء.... شعارات يتراكب بعضها فوق بعض ونسوة يلفهن السّواد يتحلّقن قرب الأبواب وشيوخ يقبعون على الرّصيف يلعبون الورق أوالدومينو ويتحدثون بلغط حتى تخالهم يتخاصمون لكنهم يبتسمون ويقهقهون ويشربون الشاي في كأس واحد يتداولونه ...عالم صاخب لكنه شديد البطء زمنه أعرج وشمسه كسولة لكنها جريئة تخالها لشدّة بطئها معلّقة في كبد السّماء لاتبرحها .... تتراكم النفايات في كل مكان .... غبار وذباب ... روائح الشواء والزيوت المحروقة تضاعف حرارة الجوّ ... دخان الحرائق أبخرة حادة .... روائح العنبر والمسك تثير الأعصاب وتضيّق الأنفاس ...

لايمكن أن تعبر " بيروت " شاردا، كلّ ما فيها : ما تراه ، ما تسمعه ، ما تشمّه حتى ما تدوسه يستفزّك لابدّ أن تحبّ أو أن تكره ، أن تغضب أو أن ترضى يجب أن تعلن موقفا وأنت تعبر ، أن تخرج عن حيادك لأن بيروت تكره الحياد .... زرت مدنا عديدة وكثير منها لا ينقصه الجمال لكنها

تفقد شيئاً من الغنج ومن الفلافل ومن النقائض التي تصنع " بيروت " : قد يكون في التداخل جمال لانلحظه .. الفوضى التي تبعثر الأشياء فتعبث بالانسجام المنمّق لتصنع آخر فيه امتزاج لعلّه الأسلم عاودتك صورة " حجّي عمران " في مطعم " السعدون " في "بغداد " حين كان يشمّر عن ساعديه وكأنه يتهيأ لمعركة وينتحي زاوية قصية من زوايا المطعم ويطلب آنية أكبر ويرفس " التشريب " بيديه ثم يبدأ ملحمة الأكل فيسيل المرق من يديه إلى مرفقيه ويختلط بالعرق ، قال لك حين لاحظ استغرابك :

– " أنتم الإفرنج تزيلون متعة كل شيء بتأنقكم الزائد ، الأكل فعل طبيعي كالنوم والجنس "

ثم أضاف :

في أحيان كثيرة تشعر أن معلوماتك حول الشرق كانت أكثر قبل أن تعيشه ،كنت تراه في الكتب قابلا للتصنيف والاستقراء لكن عندما حللت فيه تبلبلت كل المعلومات وامّحت لتحلّ محلّها عواطف مبهمة تزداد إيهاماً كلّما حاولت إجلاءها كنت تخشى من هذه العواطف أن تعصف بك وأن تقودك إلى تبنّي موقف من الشرق قد يكون حبّاً جارفاً وقد يكون كرها حاقداً ؟؟ تتنابك أحاسيس كالتي انتابتك في "بغداد " ترى نفسك كجبل الثلج الذي غادر مستقرّه متماسكا صلباً وسار في المياه الدافئة وتنسلخ عنه أجزاء كلّما صلته الشمس ويفقد أجزاءً كلّما ابتعد عن قطبه وتخشى أن يتحوّل الجبل إلى ماء وقد يؤول الماء إلى بخار هكذا أنت في صلتك بالشرق أصبحت تخشى أن تذوب أو تتبخّر فتفقد تماسكك وتغدو هباءً منثورا !! .

عاد " جون " إلى شقته محمولاً على خواطره المتداخلة وقبل أن يفتح الباب فاجأه " حجيّ معروف " بواب العمارة :

– تعال" مستر جون " خوذلك كاس تشاي ورسالة ملحبايب " .

دخل الغرفة الصغيرة وناوله " حجي معروف " ورقة مطوية ، فتحها بلهفة في كلماتها القليلة وأعاد تدقيق النظر :

– " لا يمكن أن نلتقي اليوم – إني آسفة – يجب أن أراك غدا في مدخل مستشفى الجبل على الساعة السادسة مساء ، لا تتأخر فالأمر هام جدّاً .

نظر متسائلاً لـ " حجي معروف " فقال :

– " مرّت كريستين " باين زعلانة ومعجولة تركت الورقة وراحتْ..." أحسّ " جون " بفزع وعجّت في رأسه أسئلة يعلم مسبقاً أنها دون جواب ، هرع إلى شقته وتأمل الورقة من جديد ؟؟ لم يسبق أن تصرفت " كريستين " بهذه الطريقة الغامضة لابد أن شيئاً هاماً يحصل .... أو لعلّها

اكتشفت حقيقتك وأيقنت أنك كذبة تصنع كذباً لكن من أين لها بحقيقتك وقد كدت تتيه أنت نفسك عنها ؟؟؟ من يعرف حقيقتك عدا " مستر هاردي " وبعض كبار الموظفين في الوكالة ؟ حتى أمك لاتعرف سوى أنك تدرس تاريخ الحضارات والأديان وتصلها النقود والرسائل باسم مكاتب

الدّراسات الشرقية في القاهرة أو بيروت ؟؟ انتبه " جون " لإشارة ضوئية في الفاكس المثبت في جهة خفية من جهاز التلفاز .... وفتح العلبة واستخرج اللفافة المطوية ووضعها في علبة المحمض .. عليه أن ينتظر خمس دقائق حتى يتوضح الخط الرقمي في اللّفافة لأنها تكتب بحبر خاص لا يرتسم إلا بعد تحميض شديد الدّقة في علبة سوداء .... انتابه شعور متناقض أحس أن شيئاً ما يتصل بـ " كريستين " ، أخرج الرسالة الرقمية من العلبة السوداء وتوضحت رموزها :

– " اذهب فوراً إلى المطار – ستجد مكاناً محجوزاً في الرحلة رقم 717 على الساعة الخامسة و 10دقائق " .

غامت الأشياء من حولك وأحسست أن عاصفة جديدة ستحملك إلى أقاص أخرى ولم يبق غير ساعتين على موعد رحلة لاتعلم وجهتها ودوافعها !! تشعر أحياناً أنك رقم في هاتف نقّال تعبره الأصداء من كلّ صوب لعله صبيّ عابث يتأنق في مكتبه العريض هناك ويحادث حبيبته وأثناء ذلك الحديث يرسل لك أمراً كالجحيم وكالقدر ثم ينساك وينتهي الأمر بأن تقبله حبيبته وتعلن رضاها عن سلطانه المطلق ... لقد ماتت آلهتك منذ زمن وتمردت على القدر المجهول لكن لتقع في قدر آخر أكثر عبثيّة واختفاء وصلفاً؟؟.

قفزت نحو الباب لتنادي " حجي معروف " فكرت أن تهبه بعض أمتعتك الثمينة ثم تراجعتَ ووقفت مرتبكا حين طالعك وجه " مستر هاردي " :

– " يجب أن تقرأ حساباً لكل حركة ... إن المخاطر الحقيقية تأتي بسبب الأشياء التي نعتقدها بسيطة هينة ؟؟ "

عادت به الذاكرة إلى بغداد حين فاجأه أمر الرحيل فاتصل " بطرماس " الوحيد الذي كان يعرفه وهو أكثر خبرة فقال له (غادر بملابسك وأشيائك الخاصّة جدّاً ولاتترك أثرا شخصياً ولو بسيطاً وإياك أن تخبر أحداً برحلتك ، حتى وإن صادفت بعض من تعرف فعليك أن تتصرف كمن يخرج في نزهة قصيرة أو كمن يذهب إلى المقهى)..

أتلف بعض الأوراق وجمع أشياءه القليلة ووضع العلبة السوداء داخل مغلف خاصّ فبدت كالراديو الصغير وحمل حقيبته وخرج مسرعاً حتى لايراه " حجي معروف " فيكشفه من نظراته الحزينة الحائرة ... غاص في الشارع وكان يبحث عبثاً عن وجه "كريستين " ذي العينين المبتسمتين ... حياه " أبو صبحي " فانساق دون تفكير وكاد يودّعه لكنه تدارك وصافحه بحرارة واشترى عطوراً مختلفة زعم أنه سيرسلها " للنرويج " فبالغ " أبو صبحي " في الحفاوة وانتقاء العطور وقال مداعباً :

– " دير بالك " مستر جون " هذا البخور نسمّيه " المجيب في جلب العاشق والغائب والحبيب " وصيهم هناك في البلد ما يكثروا منه علشان بيجلب الجان ... "

كلّ شيء يتبخّر وكأن الجميع في محارق هندية :

البخور والأجسام والتّحف والعواطف والأفكار والأدعية والتعاويذ كلها تتحول من الصلابة إلى السيلان والميوعة فإلى الهواء وتتصاعد متعانقة إلى فراغات بعيدة تترفع عنها الآلهة وتصدّها فتهمُد وتتجمّد هناك ثم تتحوّل إلى غازات وبعضها قد يعود قطرات ندى أو مطراً خفيفاً ممزوجاً بأصداء عطر أو حلم أو فكر عصيّ تمتصّه التربة فتعشب وتزهر ... وتأتي بقرة عجفاء نهمة فتأكل الأحلام المعشبة ثم تتخم فتنام وتروّث .. ويحمل روثها طفل هندي فيتخذه وقودا يدفئه ليلة صقيع فتنبعث أحلام عرجاء من الدفء والجوع وتعاود الصعود عنيدة مشلولة ..

صافحة " أبو صبحي " باسماً وأضاف بعد أن لاحظ إصراره على الذهاب ؟

– " ليش ما تمرّ " مسترجون " والله اشتأنا لأخبارك الحلوة .. صاير خونا يا زلمي .." .

تركت محل " أبو صبحي " وكأنك تنفلت من براءته القاتلة إنه يمسك بكذبتك الأخيرة شأن الجميع هنا :

يعرفون " مستر جون " النرويجي الطيب مسؤول سام في هيئة الصليب يضحي من أجل الجميع .... الكلّ ينبهر من طريقة حديثك وإطلاعك على التراث الشرقي ... كادوا ينصبونك قدّيساً وبعضهم يرى فيك مسيحاً عاد إلى شرقه الدافئ بعد طول اغتراب في صقيع الغرب ...

ها أنت تسير تخطو وتعبر لكنك لاتبرح ذاتك ... تتخطى الأرض والبحار والقارات تتجاوزها لكنها تسكنك .. سترحل عن "بيروت " كارها ستترك بعضاً حميماً منك لعلّه الأعمق والأحب ... في هذا الدمار الصغير وجدت أقماراً وشموساً .. في هذه الأنهج الملتوية والعمارات الجرباء وجدت أنفاساً وأزهاراً وبرتقالاً ...

تعبرُ بيروت لكنها تعبرك .... تقتحمك جرحاً تحمله معك صدى من جراحها المتجدّدة سترحل بها في قلبك ، في حقيبتك : عطوراً ولهباً وأزيزا وعويلا .. تنظر في السّاعة ترنو إلى الجدران والوجوه تسير راجلاً متباطئاً كبغل حرون ...

جئت جبلاً متشامخاً متصلباً لكنك من جليد فشقّت أعماقك وتلألأت شعاعاً وأصابك الدفء فانسحت وسلْت وتساءلت ؟؟ الرحيل أم التبخّر ؟ واختفت فيك كلمات وجلة متردّدة :

" بينك وبين الغروب قبّة
على خلفية تألّق عالم من نار !
جبل يحترقُ فجأة !
أجرد ، مستديراً ، عالياً
زاده ضوء اللهب طولا !

لاشيء عليه ليقتله اللهبُ
عدا شخصاً كان يتحرك وحيداً فوقه هناك
غاية في الوضوح أمام الفوضى والوهج
كأنه الإله الأخير في طريق عودته !!!*

❑❑

جليز المحراب

نص: حسين القهواجي

- 1 -

بعد التجوال، وتيه النّظر في رواق الجداريّات ينسى الجلاز أنْ يُعرّفك بنفسه، وغالباً لا يرغب في الختم والتوقيع..

يحتفظ باسمِه، ويترك الرّسم، نؤّوله بعفو خاطرٍ وفطرة لا تحتمل قسوة أكاديمية أو لذعة نقد تفسد مزاج الطين، وتجمّد طبقات الهواء.

أن تنقل دخيلاء الطبيعة بتفاصيلها، لا يعني أنك ابتكرت، وجئت بأحسن منها..

فمن مشاغل الخزّاف أن يفجرّ في مربعات محدودة، وعلى سائر أجزاء الجليز، ينابيع باردة لا تملّها العين، ولا تعرّش عليها الطحالب وأن يعمّق في السقائف والغرف، نوافذ تعكس على زجاجها جنّة عذراء تتنسم ساعة الهجير أنفاسها، ونتفيّأ غيومها المخضبّة بشتّى الأصباغ التركوازيّة في أبهى تجريد.

وتتوهج لعمة الجليز، سراباً ملوناً، يختزل في البارقة الواحدة، أكثر من ألف سنة خلت. وهي حيلة من خلق خزّاف بارع، يسافر بك إلى مدائن عالية الأسوار، خفّاقة البيارق...

بواباتها، أقواس سعف، وأعمدة من جذوع النخيل، جمعت بشاشة الطبع، وهشاشة البنيان يتوحد الناظر بالمنظور، فيشرد الذّهن إلى ما وراء الزخارف، وما يتشكل في عروق النّبات من علامات استفهام، وجلازين متحرّكة وأمواج تعلو وتنحني في أدوار غنائية نتذوّق أنغامها، ولا نفهم معجم ألفاظها..

وفي طرفة عين، يمحّي المشهد، وتغدو مزهرية الجليز، كوز خمر يستنضح على الواجهة نداه. تستنشق الأريج بملء صدرك، فيتبّدل الإناء نافورة تفيض على سلال الفواكه، في جنائن سحريّة، غصونها أحضان مفتوحة وبراعم حانية الرؤوس، تهمس للزّائر بالتفضّل، والدخول إلى مقام صاحب الجاه أبي زمعة البلوي.

قليل من أسماء الزليّج التي بقيت محفوظة في ذاكرة النّار بأفران القلالين منها– عفسة الصيدْ "قدم الأسد" و"خاتم سليمان" و"جناح خطاف" أضناه الرّحيل والهرب من هجمة الملك فيليب الثالث. على المورسكيين– عرب الأندلس 1574م. وبرحت به الأشواق إلى رحاب سيدي قاسم الزلّيزي..

صاحب الفضل في تعليم الأتباع، والخزّافين، تقنيات الزليج "كوبردا– سيكا" ذات الشعاب الهندسيّة والأنجم المستكنّة في أعماق الريحان المتوقد على الحائط المطلي بالجصّ "نقش حديدة":

مأطورات جبس ناصع، كأنّها مطابق الكلس المتراكم على سطوح الكواكب، وأخاديد المجرّات، حفّت أطرافها بالأحرف المحفورة، واتسعت ممّراتها لأشجار السّرو، المتسربل بأحزان الغروب، والمنقول فنّياً من شواهد قبور السلاطين الأتراك.

- 2 -

والقرميد في اللغة، خزف يطبخ. حتى إذا نضج بني، وطلي به للزينة، وهو رماني، يشيّد فسافس في غرف استحمام القياصرة، ويبلّط على أحواض التعميد بالمعابد. تكلمت به العرب قديماً، وتغنّت به في المعلقات السّبع:

كقنطرة الرُّومي أقسم ربّها
لتكتنفن حتى تشاد بقرمد

ومع احمرار فجر الإسلام، عرف باسم "القاشاني" و"العراقي المجلوب" من قاشان، بلاد الخزف بأرض فارس، وفي ديار المغرب، يعرف بـ"الجليز" وعند الإسبان "Zulejos".

تلك القراميد الثمينة، في الأصل، جلبت هديّة من الخليفة "المتوكل" مع أمهر صنّاع بغداد، لمجلس سماع أراد بناءه الأمير الأغلبي "أبو إبراهيم".

وتلك الألواح المفصلة من خشب الساج، جيء بها أيضاً لصناعة معازف، وعيدان غناء، تجسُّ بمخلب النّسر أوتارها.

ذات صباح غيّر الأمير رأيه، ونظر بعيداً بأحداق أصفى من فصوص الفيروز. ورصّع بتلك القراميد جبهة المحراب، ذات الوميض المعدني السّاطع لصيفُه وذلك حوالي 859م...

ونحت الألواح منبراً بمدارج كالمعراج وكرسي كأنه العرش.

ومن الرموز التي لا أجيد وصفها بالكتابة:

-أ- تاج لجبار، بجناحين.

-ب- أقراص في تراكيب ذكيّة

لأقمار من طينْ

يحسبها المرء مفككة

وهي في أحسن تكوينْ

-ج- قرون ثور سماوي

منقوشة على مقبض صولجانْ

-د- وأسماك تتسرب "ما بين النهرين"

إلى "قصر الصحن" جنوب القيروان.

كان الخزّاف يفرز، صلصال مخلوقاته المفتتة من مصبّات وادي القصارين ببادية صبرة.

وكان تعلّمه، وابتكاره للبريق المستخلص من صفوة القصدير وأكسيد الرّصاص، زلزالاً ضوئياً صدّع ظلمات الطين ورجّ تاريخ السيراميك.

ومع استنارة جبهة المحراب بالجليز "عراقي مجلوب" توردّت في سوق الفخار أفانين الوشي، والتصوير على الصحون الأثرية والأكواب، والقوارير التي ظلت لأحقاب طيناً شاحباً، بلا طلاء، أو لمسة ملساء، أو تقليد للوجوه، وتخليد للشبهات.

وامتلأت وحشة الفراغ بالنمنمات، وملايين الخلايا بملاعب الشطرنج، وبالألواح المعلّقة لتعاليم الخطّ، وأصول النبات.

وأتساءل الآن؟ كيف توصّلت الباحثة "مارلين جينكنز" إلى أنّ صنف الجليز المّذهب بأديرة مالقة " Loza DORADO primitiva" مشتق أصلاً من زليج الجامع الكبير، قبل أن تتبثق من زينة محرابه، مزهريات قصر الحمراء وكذلك الأباريق التي تسكب في مدينة الزهراء أنوارها، على عصافير ضاحكة الريش من شدّة الألق.

❑❑